

تقليب المواجع

خيرى شلبى



ميريت

تقليب المواجع

تقليب المواجع

خيري شلبي

الطبعة الأولى ٢٠١٠.

٦-(ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.org

merit56@hotmail.com

الغلاف: أحمد اللباد

المدير العام: محمد هاشم

٥ شارع جمال الشاهد من شارع السودان – المهندسين

تليفون: ٣٣٤٧٤٢٥٩ (٢٠٢)

فاكس: ٣٣٤٥٣٠٥٦ (٢٠٢)

www. algazeraweb. com

elgezirapress@hotmail. com

المدير العام :هشام أبوحجازى

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٦١٠

الترقيم الدولى: 978-977-351-513-2

خيري شلبي

تقليب المواجع

دار ميريت

القاهرة ٢٠١٠

تَواصُل

هذه أقاصيص من طفح الواقع المصرى الراهن بل فى لحظته الآنية، مشحونة بعذابات مروعة، تفجرت فى صدور أصحابها فرأيتها لحظة حدوثها، فروعتني، جعلت أصداؤها ترن فى أبهاء صدرى الذى أدين لزحامهم فيه بتوسيعه، وامتلائه بأصواتهم المحزونة الموجوعة الباكية، وحكايا بشرٍ تعساء لا ذنب لهم إلا قدرهم الذى أوجدهم فى أشد عصور التاريخ فساداً..

وما أنا إلا حكواتى سرِّيح، أشترى الحكايا من منابتها، أجوب وراءها الأسواق والشوارع والحارات والمنعطفات، ناهيك عن القرى والعزب والكفور، مهما كلفنى السعى وراءها من بذل ومشقة وعناء. غير أننى لست أبيعها مطلقا، إنما أنا مولع بعرضها بأسماء أصحابها وبأصواتهم، ليس فحسب افتتانا بهذه الألوان المختلفة من طرائق السرد الشعبى الساحر فى تلقائيته غير المحتاجة إلى وسيط من لغة خارجية، وإنما إلى ذلك لأنهم أخبر منى بمكامن نفوسهم ومواطن أوجاعهم، من ثم أصدق وأكثر فاعلية.. ففى تقليب المواجع تجديد لحرارة الألم وتخليد له فى الذاكرة الإنسانية التى تنضجه فيكون رابطا بين قلوب كافة الموجوعين،

إذ لـيس ثمـة مـن جـسر للتواصـل الإنسانى أنجع من جسر الألم المشترك، وليس أنجع منه فى إثارة الغضب النبيل!

خيرى شلبي

وكان القصدُ امرأةً أخرى!

-١-

الشهادة لله الست أم تامر جارتى من ثلاثين سنة ما شفت منها غير المعروف، والأدب والكمال. زوجها - يرحمه الله - كان موظفا كبيرا وغنيا، قبل أن يموت ساب لها أموالا كثيرة فى البنك تكفيها وولديها مدى الحياة. ولداها توأمان: تامر وسمير، الاثنان فى الأكاديمية البحرية، الولية أمهما طيبة القلب ونفسها سمحة وليلها ونهارها صلاة ودعاء. من شدة حبها لولديها أحبت كل أصدقائهما وكانت تعطف عليهم أكثر من أمهاتهم ولا تبخل عليهم بأى فلوس. عيبها الوحيد أنها لم تكن تستطيع السيطرة على الولدين، يلوف عليهما ولد اسمه شاهر زميل لهما فى الأكاديمية كنت أراه عندهما كل يوم، فى ساعات كثيرة أكون واقفة فى فتحة باب شقتى أتكلم مع اللبَّان أو الزبال فأراه يجيء وحده فى غيبة الولدين فينقر على الباب فتفتح له الولية فيدخل، الدار أمان، سوف تغديه وتسقيه الشاى وتتركه يتحرك فى الشقة بحريته كابن لها. كنا نزعل منها لسبب وحيد: أن الشبان الثلاثة ينصبون السهرة كأنهم فى

محل كباريه، صبيان وبنات كثار، يسكرون ويدخنون البانجو ويرقصون على أنغام شرائط يديرونها في جهاز التسجيل ويرفعون صوته على الآخر وهات يا صويت ودبدبة تهز الجدران وتنكد علينا طول الليل.. لكننا كنا في النهاية نعذرها لأنها ليست تقدر عليهم، وكنت والله متأكدة أن هذا الجنون لن يمر على خير، وفعلا ما حسبته لقيته.

-٢-

مثلما قال أخي تامر لحضرتكم نحن تعرفنا على بعضنا في مدرسة المعادى الثانوية بنين. أخي تامر هو الذى تعرف عليه في الأول وعزمه في بيتنا على الغداء ومن يومها وهو يعزم نفسه كل يوم والثاني، وأمي قدرت أنه ابنها الثالث فعطفت عليه أكثر من اللازم، أصله ابن ناس طيبين ومحترمين، أبوه أستاذ ورئيس قسم في كلية الطب جامعة القاهرة وهو كذلك طبيب مشهور له عيادة في وسط البلد، وأمه وكيلة وزارة في هيئة التأمين والمعاشات، لكنهما منفصلان، كل منهما في حاله، الولد شاهر يعيش مع أبيه من صغره وأمه تزوجت الوظيفة ونسيته ونسيت أباه وكفرت بالزواج وبالرجال، كان يقول لنا إن أباه وأمه طوال اثنى عشر عاما وكل منهما ينتظر أن يجيء إليه الآخر طالبا العفو والمصالحة ويخضع لشروط الآخر، إلى أن تحجرت القلوب كما قالت أمي يرحمها الله، لهذا كانت تغمره بعطفها. تصوروا أنها سحبت من البنك عشرة آلاف جنيه لتعمل بها عمرة رمضان، ثلاثة رمضانات وراء بعضها وهي تنفق الفلوس علينا وعليه طالبة من الله أن يسامحها.. آخر مرة سحبت المبلغ قبل موعد

الحجـز بـيوم واحد حتى لا تفرط فيه هذه المرة، يعنى كان زمانها الآن قد دفعت وحجـزت.. بـصراحة هـذا الـولد شـاهر هـو الـذى علمنا البوظان، جرجـرنا إلى عالم المخدرات والخمور والنسوان وما فيه من متع اكتشفناها علـى يديـه وسـقنا فـيها. هذا الشيطان اللعين المجرم كان من المفروض أنـه مـسافر معـنا إلى الإسـكندرية أول أمـس لنقـضى أسـبوعا فـى المصيف على حـسابنا أنـا وتـامر فـى عـشتنا ملكـنا فـى سـيدى بشر لكنـه ونحن نـركب الـسوبر جـيت افتعل خناقة مع بنت زميلة لنا فى الرحلة، عملها زعلة، سابنا ومـشي، ولم نكن نعرف أنه سيتركنا ويرجع إلى بيتنا ليفعل فعلته البشعة، لكن أخى تامر بعد وصولنا إلى الإسكندرية طلب أمى فى التليفون ليـبلغها بـسلامة وصـولنا، فلـم تـرد، عـشرات المـرات يطلـب ولا تـرد، تـشككنا، طلبـنا جارتنا فى الشقة الملاصقة لشقتنا فأبلغتنا بالمصيبة فجئنا فى الحال.

-٣-

لا أحـد يـصورنى قلـت لكـم، مـن يـصورنى مـنكم سأريه مركزه بعد خروجـى مـن هـنا، حتـى إذا لم أخـرج وأعدمونـى أنـا لى طريقتـى فـى الانـتقام!.. متأسف لا أحد يجيء لى بسيرة أمى هذه!.. هذه المرأة لم تكن أمـا إنـى أكـرهها، لو طالتها يدى لذبحتها.. هذه كانت أمنية حياتي: أن أنتقم منها شر انتقام.. السبب؟ لا أسباب عندي.. أنا يا سيدى صحوت من الـنوم ذات يـوم فلـم أر أمامـى أبا ولا أما، سألت الدادة: أين أمي؟ شهقت فـزعانة، همـست فـى أذني: الدكتور- يعنى أبي- طلقها ليلة أمس فلمّت

هدومها ورحلت.. أين أبى لأستفهم منه؟!.. ذهب إلى الجامعة ومنها سيطلع إلى العيادة، سيعود بعد أن أكون فى سابع نومة.. من يومها لا أراه إلا صدفة، يترك لى المصروف على الكومدينو، ما أحتاجه أقوله للدادة وهى تقوله له فى الصباح مع الشاي، فيترك لى ما طلبته وزيادة.. أما هي- التى من المفترض أنها أمي- فإننى لا أراها أبدا ولا حتى بالصدفة، لا أعرف حتى شكلها الذى انمحت ملامحه من ذاكرتى وصارت شبحا مخيفا وكابوسا يقلق منامي.. ولما كبرت وصرت فى الثانوية العامة طلبت من أبى أن أروح أزورها وأتعرف عليها، فخرم وجهى بنظرة كسيخ الكباب المحمر بالنار، وضحك بينما النار تأكلني، قال: عندك دم أنت؟ تركتك عشر سنوات كأنك شخَّة نزلت منها وانتهت وفى الآخر يجيئك دم لتسأل عنها؟!.. صراحة لقد أفقت على نفسي: كنت فى الخامسة من عمرى أروح الحضانة فى سيارة الحضانة، ثم فى سيارة أبي، طوال عشر سنين أصحو من النوم فلا أجد من يرتب لى فراشي، يغسل ثيابي، يطبخ لى أكلة فيها نفس مختلف عن نفس الطباخ الرجل المحترف، لو نجحت فى المدرسة لا أجد من يفرح لنجاحي، أو يحزن لسقوطي، لا شأن لأحد بصحتى إن كانت جيدة أو منيلة بستين نيلة، لا أحد يعنيه إن عدت إلى البيت أو ضربتنى سيارة فشَّشت رأسي، كنت أستطيع أن أرتكب الجرائم فى غرفتى دون أن يدرى بى أحد!.. الفلوس الكثيرة التى يعطيها لى أبى بغير حساب ملأت فراغي، بها عمّرت دماغى واقتربت من أصحابي، يعنى لم أكن محتاجا لأى فلوس لكى أقتل من أجلها.. أنا صحيح كنت أعرف أن أم تامر فى دولابها عشرة آلاف جنيه لكن صدقنى لم تكن الفلوس فى دماغى ساعة ما رجعت إلى بيت تامر وأمه فتحت لى الباب وتركتنى أدخل حجرة

الكمبيوتـر ودخلت هى حجرتها واستغرقت فى النوم. كان غرضى أن أقوم بـبعض ألعاب واتصالات، الألعاب لهلبت أعصابى فكرتنى بأمى وأنا كلما تذكـرتها يـصيبنى الجـنون، جنون الرغبة فى الانتقام، فى سورة الغضب كـنت أتخـيل شـابا يـشبهنى يكـره أمه مثلى ويبحث عنها مثلى وقد راح يـتجول فـى هذه الشقة فدخل حجرة النوم ففوجئ بها ممددة على السرير مـستغرقة فـى الـنوم فلـم يـصدق مـا رأى ومن شدة فرحته جرى إلى المطبخ وأتى بالسكين الكبيرة شاعرا بالانتصار لأنه أخيرا سيزيح الكابوس القاعد فوق صدره كالجبل، دخل عليها شارد اللب والبصر، طعنها فى قلبها، فى صـدرها، فـى جنـبها، ولـمزيد مـن راحـة التأكيد ذبحـها فاصلا رقبتها عن جـسدها.. أفقـت علـيه فـإذا الـسكين فـى يدى أنا يشرُّ منها الدم لا أدرى كـيف فعـل فعلـته وألبـسنى السكين واختفي..! أما أنا فكنت والله العظيم أقصد قتل امرأة أخرى بدلا من هذه الأم الحبيبة!.. صدقني: امرأة أخرى. أصـابنى الهياج، أشعلت النار، لكن الفلوس صعبت على فأخذتها وذهبت إلى الإسكندرية للتمويه على أصدقائى فإذا بالبوليس فى انتظاري.

خلاص

دائـرة الهموم تضيق حول رقبة الولية أم نوال جارتنا: طلوعها على المعاش قصم ظهر مرتبها، معاشها اليوم -هى التى كانت كبيرة الممرضات بمستـشفى طـنطا العـام- لا يـسدد وصل النور ووصل المياه وأجرة الزبال.. زوجهـا المـسكين لائـذ بالـسعودية، كـان تمورجيا فى مستشفى جدة العام وطلـع علـى المعاش هو الآخر فجاء مصر، فصاروا سبعة أفواه مفتوحة ليل نهـار: هـي، هو، نوال، فايزة، فاتن، مديحة، عماد؛ ولد بايظ من يومه لم يجـد أبـا يـشكمه ويحـسن تربيته فتخرج بالعافية من مدرسة الصنايع وتخـبط فـى أشغال كثيرة خائبة وأخيرا صاع وأدمن المخدرات. أبوه خاف مـنه ومـن مـشاكله اليومـية فهـرب مـنهم، قـال إن حالتهم صعبانة عليه ولا بـد أن يعـود إلى الـسعودية فـى رحـاب سـيد الخلـق ليكافح من جديد خـصوصا وبـناته الثلاث الكبار صرن عرائس ينتظرن عريسا لا يأتى أبدا، وينتظـرن وظيفة بشهاداتـهن من كليات التجارة والزراعة والتربية الفنية. مـع ذلـك فالبـنت الـصغيرة مديحـة لم تـتعظ مـن خيـبة أمـل الـشهادات الجامعية فدخلت كلية الحقوق لتصبح هى الأخرى جامعية، ياما نصحتها أمهـا بـأن تفعـل مـثلها وتـدخل مدرسـة الحكـيمات لتـضمن وظـيفة فـى

التمريض لكنها كالأقرع النزهى فكان الله فى عون أمها.. آه يا غلبك يا أم نوال! هل أذنبت لكى تقع الدنيا كلها فى قرابيزك وحدك؟!

و.. رمت بالفستان صائحة، الإبرة بدلا من أن تدخل فى ثقب الزرار اندكت فى إبهامها، لحست دمها وصارت تنفخ فى موضع الغزة.. زوجها- الله لا يسامحه- لم يرسل لها أى شيء، منذ عامين جاءها جواب منه طمأنها فيه على نفسه إذ إنه يسترزق من عيادة خاصة يعمل فيها بأكله وشربه وكسوته فإن فاض عليه شيء سيبعث به لهم، ولم يبعث، الله أعلم إن كان حيا أم ميتا لكنه نفد بجلده..

أمسكت بالفستان، جعلت تكمل تخييط الزرار.. يا ربي.. الفستان اللى حيلتها نقره الفأر فتح فيه ثقبا على الكتف، فكرت فى الذهاب به إلى الرَّفا، الفستان صوف ولا يعوض، ولكن من أين لها بأجرة الرفا؟.. منه لله ابن بطنها عماد، ليتها قعدت فوقه فطسته يوم ولادته!.. كل ما يصلح للبيع فى البيت باعه، لم تعد هى قادرة على إيقافه عند حده، ألم يضربها يوما بالحذاء؟! هذا البليد الحس يلوف على خمسة من البلطجية المجانين مثله، يفتح لهم بيتها للتحشيش وشم الهيروين وشرب الخمر، من شدة رعبها تطوى بناتها تحت جناحيها وتغلق عليهن باب الحجرة من الداخل حتى الصباح..

يا للحسرة! نقر آخر أوسع فى ذيل الفستان؟ وثالث ورابع فى الكمين؟ عليه العوض فى الفستان.. هذا الفأر اللعين كيف تنتقم منه ؟ كيف تقضى عليه؟.. تذكرت أنها كان لديها أنبوبة من سم الفئران.. رمت الفستان وقامت تبحث عنها فى علبة الكراكيب.. وقفت على السرير، مطت جذعها ومدت ذراعيها سحبت الصندوق الكرتون من فوق الدولاب،

جلست تعكرش فيه.. منذ كم شهر أتي ولدها عماد لأخته الكبرى نوال- الجامعية- بعريس عربجي، أراد أن يعقد له عليها بالقوة، البنت رفضت بالقوة أيضا، فبهدلها، حلق شعرها، شوه وجهها بالسكين.. بعدها بأيام- يا وكستها- طلب من أخته نوال أن تنام مع العربجي ليلة واحدة بدون زواج رسمي، صوتت نوال ولطمت لكنه هددها بأنه سيأتي بها بمن يضاجعها هي نفسها بالقوة!..

أى شيطان هذا الولد اللعين؟ هل يكون الشيطان ضاجعها في هيئة زوجها دون أن تدرى فوضع فيها بذرته هذه الشريرة؟.. المجنون نفذ وعده بالفعل، جاء في ليلة بأحد البلطجية، أمر أخته فايزة بأن تدخل معه الحجرة ليضاجعها.. البنت رفضت هي الأخرى وقاومت، دلق فوقها صفيحة الجاز، أشعل فيها النار، لحقوها قبل أن تموت ولكن ليتها ماتت بدلا من أن تموت كلما نظر في وجهها المسلوخ أحد.. ها هي ذى أنبوبة السم، فأين يكمن هذا الفأر اللعين؟ عليها الآن أن تجمع فتات الخبز من صفيحة الزبالة، تلغمط كل فتفوتة بمعجون السم وتبعثرها في جخانيق المطبخ وفي قعر الدولاب بين الهدوم وتحت الكنبة، عملية شاقة ومقرفة ولكن لا مفر منها..

أمسكت بالأنبوبة وتأهبت للقيام تبحث عن بقايا فتافيت من الخبز.. جاءتها الصرخة المدوية شرخت قلبها، إنها ابنتها مديحة الصغرى، اندلعت وراء صرختها وارتمت في حضن أمها ترتجف، ترتعد، شعرها محلول وثوبها ممزق.. ما لك يا قلب امك! عماد يا ماما.. ما له؟.. عاوز يقلعني ملط وينام معايه!..

تسمرت الولية، تجمدت، ما عاد يفيدها لطم أو صراخ أو حتى تبليغ البوليس فلن ينقذهن أحد من شرور هذا الولد، إنه الوحش الحقيقى فى هذا البيت يثقب قلوبهن ويقرض شرفهن. لحظتها كانت لا تزال ممسكة بأنبوبة سم الفئران وقد نسيت ماذا تريده منها.. يا له من فجور كامل: الولد يظهر واقفا على باب الحجرة يلهث ويصرخ فى أخته: قومى يا بنت الكلب اعمليلى كباية ليمون.. حتقومى ولا لأ؟، واقترب خطوة رافعا ذراعه ليضربها.. خلاص يا حبيبى أنا اللى حاعمل لك الليمون! اقعد استريح. قامت، فى المطبخ وقفت تعصر الليمون فى كوب الماء المحلى بالسكر.. فجأة انتبهت إلى أنبوبة سم الفئران لا تزال فى قبضتها.. دون تفكير فتحتها ضغطت عليها بقوة، المعجون راح يتلوى كدودة القطن، نصف الأنبوبة اندلق فى الكوب، راحت هى تقلب بالملعقة.. خذ يا حبيبى اشرب..

تقرفصت أمامه وجعلت ترقبه وهو شبه غائب عن الوعى يجرع الكوب عن آخره، ثم رمى بالكوب فكسره كعادته حين يسكر، قام يترنح، ما لبث حتى اندلق متهاويا فوق الأرض جثة هامدة. اندفعت نحوه، مالت عليه، تأكدت من أنه لفظ أنفاسه، شعرت كأن الجبل الذى كانت تحمله فوق ظهرها قد انزاح لبرهة من الزمن ثم انحط فوق صدرها، صارت أنفاسها تخرج بصعوبة محدثة أصواتا كورق الشجر تحت العاصفة، لطمت، صرخت، خمشت الأرض بأظافرها، صارت تمزق لحم وجهها وتنتف شعر حواجبها ورموشها، ثم صاحت فى ابنتها آمرة بحسم قاطع ورهيب: بلغى البوليس يا نوال عشان تكمل بالمرة.

تعليمُ الصَّلاة

سبحان الله يا ولية! أكلما رأيتنى زعلانا تتصورين أنك السبب؟ أنا فعلا غضبان والعفاريت تتنطط على وجهى من ساعة ما عدت من بيت أخى المتعوس. حاجة تكسف يا ولية.. ليتنى ما رحت. بينى وبين بيته محطة أتوبيس واحدة كما تعرفين ومع ذلك لم تطاوعنى رجلى فى المرواح إليه مرة واحدة من يوم ما سافر بسلامته إلى السعودية ليعمل سائقا طوال عمرة رمضان إلى نهاية موسم الحج.. مدينة السلام كلها تعرف أننى أقاطع بيته فى غيبته احتراما لنفسى وله أيضا. أنت تعرفين السبب: امرأته لِوْنة وشايفة نفسها على الآخر، هى لا تزال عيلة على كل حال ولا أعرف كيف رضى هذا المجنون أن يتزوجها وهى تصلح أن تكون ابنته، وهو يعلم أنها بنت مُلعب تربية نصبة الشاى مع أمها المعلمة بنبة فى موقف الدراسة، كيف يأمنها على شرفه فيذهب على باب الله ويتركها فى الشقة بمفردها مع ابنه؟ كيف يأمنها على ابنه الوحيد الذى يترجاه من ربنا بعد معرَّة أمه التى لا تزال الشقة باسمها هي؟ ولماذا يسافر أصلا؟ يجلب لها أموالا تشترى الدش والفريزر والفساتين الشفتيشى وعلب الزينة التى تسحره بها؟ بدلا من أن يشترى عربة يأكل من ورائها عيشا؟.. أنا ياما

نـصحته بأن يلم نفسه ويمشي على قده حتى لا تركبه الديون مرة أخرى.. الـزنقة الفائـتة- فـى فـشخرة زفافـه علـى المحروسـة- باع فيها سيارتـه الميكـروباص قـبل أن يـدخل السجن بإيصالات أمانـة وهو لا يزال فى شهر العـسل الأسـود.. المـرة القادمـة يعلـم الله مـاذا عـنده يمكن أن يبيعـه ليفك زنقـتـه، ما أسرع ما يبيع، الفقر لمثله دواء. الأكادة أنه أسرع من يتورط فى مـشاريع أوسع من رزقه. طب قولى لى بحق الله يا ولية: ما الذى يدعو رجلا فقـيرا مـثله علـى بـاب الله لأن يـدخل ابـنـه مدرسة بالمصاريف التى تقصم الظهـر؟ مـا عيـبها مـدارس الحكـومة المجانية؟ أم أنها قنزحة والسلام؟ مـصيبتنا الـيوم يـا فقراء أننا نريد أن نغتنى فى لمح البصر، بضربـة حظ أو بضربة قتل..

غـصبا عنـى رحـت يا ولية. أنت بنفسك شفت الولد يا حول الله وهو كـل يـوم والثانـى يجـيء ليـشكو لى مـن هذا الشيخ القاسى الذى يجـيء إلى البـيت كـل يـوم ليعطيه دروسا خصوصية فى اللغة العربية والدين وكيفية الـصلاة.. شيخ ماذا بحق الله هذا؟ أكل من أطلق لحيته صار شيخا؟ أكل من حفـظ شـيئا من القرآن والحديث الشريف صار من حقه أن يكون داعية وأن يعـظ ويعطـى العيال دروسا خصوصية فى الدين؟ وهل من التعليم أن يفرك حلمـة أذن الـولد بحـصوة؟ يضربـه بالفلقة على قدميه؟ يلطش له أصداغه؟ يهـرى بدنـه بالخيـزرانة إذا نـسى كلمـة مـن آيـة أو حـركة مـن حركات الوضـوء أو أخطـأ فـى اتجاه القبلة أو فى عدد الركعات؟! كل هذا اعتبرتـه مجـرد حمـورية من هذا المدعو بالشيخ فتُّوح. لكن الولد فى آخر مرة حكى شـيئا غـريبا مدهـشا جعلنـى أشـك فـى أن أحـدهما عاقل: الولد أو الشيخ فتوح، قال الولد إن الشيخ فتوح يأمره بأداء فروض الصلاة ليوم بأكمله فى

خيط واحد متصل: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء والشفع والوتر أيضا، كل ذلك دون أن يتلفت يمنة أو يسرة أو حتى يرمش بعينيه فهذه شروط الصلاة وإلا فالخيزرانة وراء ظهره مباشرة. عندئذ قلت: لا، وعصرت على نفسي ليمونة وذهبت في السر وفي نيتي أن أتصنت وأتجسس وأفعل أي شيء يمكنني من معرفة ما إذا كان هذا الولد صادقا أم متجنيا. الشقة في الطابق الأرضي في بلوك من بلوكات حي سبيكو، تستفيد من مساحة خلفية كبيرة زرعها أخي شجرا ظليلا وسورها بالسلك الشائك إذ إن شباك صالة شقته يفتح عليها. مرقت من خلل السلك، قرفصت تحت الشباك المقفول الدرفتين على شكل شمسية، سمعت صوت شحير مكتوم وصوت لذة محبوسة. وقفت ناظرا خلل الشيش لأرى عجبا: الولد التعيس راكع قرب الباب في اتجاه القبلة، ومن ورائه على الكنبة- تحت الشباك مباشرة- المرأة العاهرة في حضن الشيخ فتوح وهو داخل فيها من تحت الثياب.

قبل أن أدمر الشباك على رأسيهما نزل على قلبي ستر الله، خفت من كيد النساء الذى قد يدمرنا جميعا، فتسللت عائدا كما دخلت، ولكن الغضب سكن صدرى ولن يفارقني مدى الحياة وقد يقضي عليّ فماذا أفعل ؟ دبريني يا ولية.

مضيقُ العتْمة

كنا – زميلى طالب الطب وائل النشرتى وأنا– فى انتظار المعلم حنِّس الـذى سيبيع لنا جثـة كاملة حديثـة الدفن لم تتحلل، وبما أنـه من معارفي، وأنـا المسئول عن التفاوض معه فى أمور البيع والشراء لذا فإن زملاءنا الذين يـشتركون فى ثمن الجثـة قد سلمونى مبلغ ألف وخمسمائة جنيه جمعوها مـن بعـضهم. ورغـم أن هذه لم تكن المرة الأولى حيث اشترينا منه لزملائنا أربـع جـثث فـى العـام الماضـى فإننـى بدأت أشعر بالتوتر والقلق من طول الانـتظار، وهـا هـو ذا وائل النشرتي– وهو خفيف ويدعى الجسارة وحب المغامـرة– قـد راح ينظـر فـى ساعته كل دقيقتين ووجهـه أصفر كالح ضامر كالليمونة الناشفة. ركبنى الخوف من منظره، نظراته زائغة حائرة تائهة فـى الزحام الخانق الزاعق تحت كوبرى السيدة عائشة حيث تختلط جموع البـشر بـسيل مـتدفق مـن جمـيع أنواع السيارات وعربات اليد والكارو فى جمـيع الاتجاهـات المـرورية. لقـد كان اختيار المعلم حِنِّس لهذا المكان كى ننتظـره فـيه اختـيارا واعـيا وحكـيما حيث يستطيع كل واحد أن يفعل ما يشاء فى هذه المعمعة المرورية دون أن ينتبه إليه أحد، ولهذا كان علينا أن ننـزوى بالسيارة السيزوكى فى ضلع بوابة متهدمة من سور مجرى العيون

فـي مـدخل حـى الإمـام الـشافعي، جـاعلين مؤخرة صندوق السيزوكى فى اتجـاه مقابـر الإمـام، بحـيث تجـيء سيارة المعلـم حـنس- سيزوكى هى الأخـرى- زاحفـة بظهـرها حتـى تكـاد مؤخـرة صندوقها تلتصق بمؤخرة صـندوق سيارتنا، وفـى لمح البصر يكون صبيه الراقد فى صندوقه قد رفع الـزكيبة المحكمـة الـربط ونقلـها مـن صندوقه إلى صندوقنا. سائق السيارة الـتابعة لـنا شاب طيب على نياته أتينا به من حى السيدة زينب لينقل لنا زكيـبة ملآنـة بقطن التنجيد، على أساس أن المعلم حنس سوف يضع الجثة داخـل الـزكيبة مغمـورة بقطـن التنجـيد الـذى يجب أن يبُظَّ من خلل غرز الخياطة المكسكرة بالدوبارة المتينـة كما فعل معنا فى المرات السابقة..

الآن يحـق لى أن أشـعر بالندم على موافقتى بأن يجيء وائل النشرتى معـي، فلـو أنـه اسـتمر علـى هذا التوتر والخوف فسوف يلفت نظر الولد الـسائق فيـستريب فـى أمـرنـا.سـحبته إلى بعـيد وقلت لـه: إن كنت خائفا تـستطيع أن تنـسحب قـبل أن تفـضحنا. قـال إنـه بالفعـل مرتعب ولكن.. خـلاص مـا دمـت قد جئت فربنا يستر. كان يوشك أن يرحب بالانسحاب لكن نظرة فى عينيه كادت تصرخ فى احتجاج قائلة: ونصيبى فى المغامرة؟ فالواقـع أنـنا لـسنا نقـوم بهـذه المغامـرة لـوجه الله وخدمـة لزملائنا، إنما الواقـع أنـنا نـستفيد وبعلـم زملائـنا وبـناء على اتفاق: نأخذ منهم الألف والخمـسمائة الجنـيه ونحـن وشـطارتنا مع المعلم حنس، نعطيه ألفا، ألفا ومائـة علـى الأكثـر ونـضرب الباقى فى جيبينا، وفى نفس الوقت نستفيد علمـيا مـن دروس التشريح على الطبيعـة مع الذين وفرنا لهم الجثة.. على أن الـرعب سـرعان مـا افـترس وائـل وجعله ينتفض حينما شاهدنا سيارة المعلـم حنس خارجة من حارة بين مقابر الإمام ثم تعتدل لتزحف بظهرها

نحـو ظهـر سيارتنا.. برهة وجيزة لم نلحظ خلالها كيف انتقلت الزكيبة مـن الـصندوق إلى الـصندوق إنمـا سمعـنا صـوت سـائق المعلـم حـنس يقـول لـسائقنا: اتكـل علـى الله يـا اسـطى غـور مـن هـنا بـسرعة، وكان وائل قد انخطـف كأنمـا تلبـسه الجـن، راح يهرول في حارة المقابر ثم يرتد عائدا وهو ينتفض.. وظل ينتفض طوال الطريق..

سلمنا الزكيبة لبواب قصر منيف في المعادى الجديدة، صرفنا سائق الـسيزوكى ومشينا بين أشجار دجلة. أردت إدخال البهجة عليه فقلت له إنـنا ربحـنا خمسمائة جنيه، فكأنـه لم يسمعني، هتف صارخا: تاكسي، وسـحبنى بقـوة، أدخلنـى الـسيارة ثـم صاح في السائق: الإمام الشافعى يا اسطى. عدنا إلى حيث كنا ننتظر، وكانت الشمس قد غربت وطرحت فوق مقابـر الإمام ملاءة رمادية تشف في بقع منها عن لطشات محمرة كجلباب الجـزار، ووائـل الـنشرتى قـد انسخط وصار كعود من القش تطوحه نسائم الأصيل المكتئب. قال دون أن أسأله: مقبرة عائلتنا في هذه الحارة! ثم بلل شـفتيه الجافـتين بلـسانه وحـاول أن يـسلخ صوتـه مـن حمولات انفعالية ضـاغطة كحمـولة القطن التى غمرت الجثة في الزكيبة، قال: عمي مدفون هـنا قـبل شـهر واحـد! ثم توقف يلطم خديه، إذا بنا أمام مقبرة عائلته، كانـت أكـوام الـتراب أمـام شاهدها تخفى سردابا داخلا تحت الشاهد يفح مـنه الظـلام. اندفـع إلـيه وائـل، تقـرفص، زحـف داخلا، جاءت صرختـه الملـتاعة مدوية فاهتز من هولها التراب الناعم وتناثر: عمي! عمي! المعلم ابن ديك الكلب باعنا جثة عمي!.. أطل رأسه خارجا من السرداب مغمورا بـالتراب فتغيرت ملامحه فكأنـه حيوان خرافي يقتات على الجثث. وقف بـصعوبة، حـاول الصعود فوق كثبان الرمل فانزلقت قدمه فانكفأ فكأن قوة

مغناطيسية جذبته من قدميه إلى داخل السرداب فصرخ منتفضا بقوة حتى وقف، لكنه ما كاد يخطو حتى انزلقت ساقه فانكفأ مرة أخرى بقوة أعادت نصفه إلى السرداب. مددت له يدى فتعلق بهما فشددته فإذا بقوة الجذب تشدنى معه فأنكفئ فوق الكثبان. عندئذ هبط فوقنا المعلم حنس برجاله فأطبقوا علينا، سلمونا يدا بيد إلى الشرطة باعتبارنا من لصوص المقابر.

ذئب بائس

حيـنما دخلـت علينـا شيرين بـنت خالتى لم نكد نتعرف عليها من شـدة مـا كانت عليه من اضطراب وبهدلة وثياب ممزقة. وحينما حكت لنا الموقـف الـسخيف الـذى تعرضـت لـه وهـى قادمـة إلينا حدث لنا نفس ما حدث لها : ارتعشت أبداننا وسقطت قلوبنا فى أقدامنا ثم صعدت بعد قليل وعـادت الـدماء إلى وجوهـنا ، ثم تلاقت نظراتنا الشاحبة الهفتانة فإذا بنا قـد راحت أبداننا تـهتز بعنف وقوة من عمق الضحك الذى اعترانا ، وبرغم الجـوع والإحـباط وعـنف الـصدمة لم نكف عن الضحك لدرجة أننا عجزنا بقية الليل عن مواصلة الشغل فى تركيب الديكورات والستائر والنجف فى شـقة أخـيها وائـل ابن خالتى التى سيزف فيها فى نهاية الأسبوع القادم. باختـصار باظـت الـليلة فـى عـلاج ما ترتب على ذلك الموقف السخيف من أعطال ، وقد دفعتنا النخوة إلى النزول والتجول بثلاث سيارات فى شوارع حـى المقطـم- فـى الهـضبة العلـيا- بحـثا عـن ذلك المجرم التافه ، الذئب البائس.

شيرين بنت خالتى من مواليد المقطم منذ حوالى عشرين عاما وتعرف جخانـيقه وتألـف كل شوارعه لأن زوج خالتى رحمه الله كان من أوائل من

سكنوا فى المقطم فى أقدم سراية بنيت على الهضبة العليا، وأغرى الكثيرين من العائلة فجئنا وبنينا بجواره فطابت لنا الحياة طوال الطفولة والصبا والشباب. ورغم أن الحياة كانت آمنة من اللصوص والمتشردين والمتسولين وقطاع الطرق فإننا جميعا اعتدنا أن نحتفظ دائما- فى جيوبنا أو حقائبنا أو حقائب سياراتنا- بسلاح من نوع ما، يبدأ من العصا ويصل إلى المسدس والبندقية وذلك تحسبا لأى قاطع طريق يعترض الواحد منا أثناء عودته فى وقت متأخر من الليل، ومع ذلك لم يحدث أن اضطر واحد منا إلى استخدام السلاح فى أية لحظة، وكنوع من التسليح أيضا تدربت شيرين بنت خالتى على ألعاب من الرياضة البدنية وعشقت رياضة الكاراتيه وحققت فيها بطولة دولية حتى أصبحت صورتها مألوفة لقراء الصحف، وكانت واثقة من نفسها جدا ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منها أو يتهجم عليها. وهى جدعة جدا ربما أجدع من مئات الرجال، وقفت بجانب أخيها وائل وساعدته على امتلاك هذه الشقة فى هذه الضاحية الجديدة فى آخر أطراف الهضبة العليا، وهى التى خطبت له عروسه زميلتها بطلة الكاراتيه، ولكى تشجعنا وتشجع العمال على إنجاز مهمتنا فى أسرع وقت ممكن ضاعفت أجر العمال لكى يسهروا حتى الصباح. كانت العروس قد عزمتنا على غداء منزلى أعدته فى بيتها وأتت به إلينا ثم انصرفت بالمواعين الفارغة قرب المغرب، بعدها بقليل كلمتنا شيرين على محمول وائل وطلبت منا أن نختار العشاء الذى ستعزمنا عليه. وائل وأنا نعرف أن خالتى ملخومة فى أشياء لا حصر لها، وكان يوشك أن يتجه بطلبنا إلى صاندوتشات سريعة ولكن شيرين تهورت وأعلنت أن العشاء كباب وكفتة من أشهر كبابجى فى حى الغورية. ولم تضيع وقتا، أو لعلها

كانت في حي الحسين لبعض شأنها فاستقربت فكرة الكباب المجاورة لها فى تلك اللحظة. بالمحمول أوصت المعلم الكبابجي بتسوية ثلاثة كيلو جرامات كباب وكفتة وطرْب مع السلطات بأنواعها مع عشرين من أرغفة طرية.. على مقهى الفيشاوى جاءها الولد الصبى باللفائف محكمة بورق المحل والدوبارة الملونة وداخل أكياس من البلاستيك. فى ظرف ساعتين كانت هى قد صارت على مقربة من العمارة الجديدة الواقفة وحدها فى الهوّ، حين صارت قبالتها فكرت أن تركن السيارة وتعبر الشارع والشارع المعاكس إلى العمارة بدلا من المشوار الطويل إلى تحويدة الدوران لتعود هذه المسافة إلى العمارة، لكنها كرياضية استمسكت بالنظام القانونى، إلا أنها فى منتصف المسافة فوجئت بصوت فرقعة مدوية على إثرها بركت السيارة من الجنب الشمال. تشاءمت من فرقعة العجلة، تذكرت أن الاستبن فارغ، الحل الوحيد أمامها أن تترك السيارة كما هي، وتعود سيرا على قدميها إلى العمارة ونحن بعد ذلك نتصرف. ما كادت تمسك بالأكياس وتمشى خطوات حتى خرج عليها من تحت الأرض عملاق أسود زحف ظله على عمود النور فغبشه، كان عارى الجسد إلا من سروال قصير جدا ومتهرئ، خرّم عليها مباشرة كالوحش المفترس، تجمع فزعها كله فى صرخة، ثم انطلقت تجرى فى اتجاه العمارة وهى تصرخ، لكنه بساقيه الطويلتين صار فى مواجهتها بخطوتين، رغم يأسها من نجاح الكاراتيه مع عملاق أسود شرس فإنها قررت الدفاع عن نفسها، تراجعت متأهبة فيما هو يزحف عليها فى تطامن قاتل، تحررت من الأكياس، ألقت بها على الأرض لكى تتقافز بحريتها، فإذا بها تفاجأ به ينقض على الأكياس بفرحة طاغية فيجمعها فى حضنه ويرتد عائدا من حيث أتى، ثم

التفت إليها من فوق كتفه بفحيح من صوته المليء بالقلاقل: مع السلامة انت بقى يا حلو!

عيد « الضحية»

نعم أتكلم، مم أخاف؟ وهل عاد فيها خوف؟ الخنقة قابضة على أرواح الناس كلهم وليس هؤلاء فحسب من موظفى الضرائب العقارية الذين تركوا بلادهم وجاءوا ليعتصموا ها هنا تحت جدار مبنى مجلس الوزراء مطالبين بأحقيتهم فى الإنصاف كزملائهم فى وزارة المالية. واحد مثل حالاتى مرتبه لا يكفيه ثمنا للمواصلات وحدها فمن أين يأكل ويشرب ويكتسى ويتعالج ويسكن؟! أخى وزوج أختى من زملائنا وموجودان بعيالهما وسط هذا المنظر البشع: أكوام من اللحم البشرى مرتصة على أرض شارع حسين حجازى بطوله وعرضه فى العراء فى عز البرد، لا فرش لا غطاء لا طعام لا شراب لا دورة مياه، لا ولا رحمة، لا أحد يسأل فينا كأننا كفرة أبناء كفرة فى بلاد الكفرة!.. أخى هذا من حملة ليسانس الحقوق ومرتبه بالبدلات بالحوافز أربعمائة جنيه بعد عشر سنوات خدمة علما بأنه يعول زوجة وثلاثة عيال.. أختى زوجها نفس الوضع لأنه زميل أخى ودفعته فى كلية الحقوق وفى التعيين وهو الآخر يعول زوجة وخمس بنات. كل منهما- مثل غيرهما- لم يجد مفرا من الإتيان بعياله معه، لمن يتركهم فى البلد؟ ليس فى البلد سوى الجوع

والعطش وأوحال الصرف غير الصحي. هؤلاء جميعا قد استبيعوا طالما أن الحكومة طرمخت وأغمضت عيونها عن حالنا. عملنا حسابنا على أن قعدتنا هذه قد تطول إلى شهر أو شهرين، فإن متنا من الجوع أو من هراوات العسكر بتنا شهداء عند ربنا.

يقول الناس إننا تعلمنا من اللبنانيين الذين عسكروا فى الشوارع والميادين مضربين عن العمل إلى أن تتحقق مطالبهم بسقوط الحكومة التى يقولون إنها غير شرعية.. وأنا أقول إن اللبنانيين لديهم أكل وشرب وبطاطين وشلت ومخدات وعندهم دورات مياه عامة وخاصة يذهبون إليها وقت الحاجة.. الدور والباقى علينا، لا يوجد بين سكان هذه الشقق مجنون يقبل أن يفتح باب شقته لكل مزنوق ولو على سبيل الرحمة للمصابين بمرض البول السكرى أو من باب الشفقة على العيال الصغار الذين يصرخون طوال الليل والنهار إما من الجوع أو من زنقة الحاجة.. العيال يفعلونها على أنفسهم والرجال يتصرفون كيفما اتفق ولكن ما أصعب الأمر على النساء.

عيد إيه وزفت إيه؟ لن يكون العيد فخا، لن يكون حجة نعود بها إلى بلادنا لنعيِّد وسط أهالينا، هؤلاء هم أهالينا وقد تجمعوا كلهم فليكن ذلك فى حد ذاته عيدا كبيرا بحق.. سنعيد هنا، فى مطرحنا، سنفرش ثيابنا ونصلى صلاة العيد مطرحنا.. أليس العيد الكبير هو عيد الأضحى؟ فلنكن نحن الضحية فداء لكل الموظفين الغلابة فى مصر..

ما يؤلمنى ويقطع قلبى هو الفزع فى عيون العيال جميعا ها هنا، الكبار منهم فيهم تلامذة فى المدارس الابتدائية والثانوية تعطلوا عن الدراسة فتكوروا جنب أمهاتهم فى انكسار وذلة بوجوه شاحبة وشفاه

جافـة وعـيون معمـصة يتقافـز مـنها شـرر بائس كأنـهم يستنجدون بالمارة ويـتوقعون فـى كل نظرة أن يكون القادم نحوهم مبعوث رحمة إلهية، كل من يحمل كيسا به شيء يتطلعون إليه فى لهفة ثم يودعونه بأسف وحسرة فـى حين تنضح وجوه أمهاتهم بالمرارة. أما الرضع والصغار فهم فى ذهول دائم لا يفهمون شيئا مما يدور حواليهم، في حالة توتر كظيم ينفسون عنه في نوبات بكاء وصراخ يقلق الموتى ..ولكن مجلس الوزراء من وراء الحائط لا يسمع ولا يرى كأنه قد ووري التراب إلى الأبد..

الـرعب يتمشى أمام العيال في بدل سوداء وخوذات نحاسية ومدافع رشاشـة مـصوبة نحـو عـدو مجهـول يكمـن فـى جمعهـم فيـتلفت العـيال حوالـيهم بحثا عنه. الولد أحمد ابن أخى أصابه الخرس من أول يوم حتى خفنا عليه، اكتفى بالفرجة الذاهلة على فزع العيال، لكنه من شدة الجوع داخ، حـاول التقـيؤ فلـم يجـد فـى بطنه شيئا يتقيأه سوى روحه التى راح يتـشبث بها في كل شهقة.. حملته بين ذراعى مشيت به فى شارع القصر العينى واشتريت له باكو بسكوت فراح يستطعمه بلذة، وإذ رآنى أعود به مـن جديـد إلى الـتجمع اكفهـر وجهه وانفجر فى البكاء، فأخذت أهدهده وأضـاحكه وألـف بـه فـى الـشارع المجـاور حتـى هـدأ ثم حملق فى عينى قائلا:

– هى الحكومة بتكرهنا ليه يا عمي؟!

قلت له ضاحكا: تعال نسألها، وعدت به إلى حيث كنا.

اللحم المصري

كـل أهـل الحتة في الوراق كانوا عارفين وشايفين حكايتنا من أول ما بـدأت مـن قبل خمس سنين: أمونـة تحب سعيد وسعيد يموت فى أمونـة، ولكن، طب وبعدين؟ نبقى هكذا نحب بعضنا بإخلاص من بعيد لبعيد ؟.. الحـب مـن غـير فلـوس يـدك منه والأرض. إن كان على الحب فإنه متوفر ومرطـرط لكـنـه لا يـساوى ملـيما أحمـر فـى سـوق الخضار. وعلى كل حال الحال من بعضه؛ سعيد غلبان آخر غلب، يسكن فى عشة صفيح فوق سطح البيت الذى نستأجر فيه حجرة فى الدور الأرضي، بيت أم يحيى فى آخر الحـارة الـسد، يـشتغل فـى دكـان كاوتش يلحم عجلات العربات ويوميته يادويـك تكفـى أكلـه وسـجائره وإيجـار العـشة وكـان الله يحب الصابرين. حالتـى أنا وإخوتى ألعن وأضل سبيلا: أبى كان يسرح بعربة بطاطا سخنـة فـى الـشتاء، وفـى الـصيف يقلـبها ترمس وحلبة مزرِّعة، وكان يقف بها علـى ناصـية حـارة فـى الكـيت كـات أمام دكان الكاوتش الذى يشتغل فيه سـعيد، يعـود إليـنا آخر الليل هلكانا، يأكل اللقمة وهو ينام على روحه، تـترك لـه أمـى مكانـه الـذى تحجـزه لـه بجوار الحائط وتتمدد بجواره، وأتمـدد أنـا بجـوارها، وبجـوار رأسـى عشرة أقدام لأختى حفيظة وأختى

لبيبة وأختى رسمية وأختي سعاد وأخى حموكشة آخر العنقود الكفيف وعمره سبع سنين، ويناموت خلف خلاف وبهذا تتسع الحصيرة والبطانية لنا جميعا. أما الحجرة فتحت بير السلم لصق الكنيف مباشرة وهو لجميع سكان الحجرات الأربع الأرضية، وليس لها أى شباك على أى اتجاه يعنى مقطوعة عن الشمس والهواء ومفتوحة على رائحة الكنيف التى أصبحت تعاشرنا وفى قلب حجرتنا تنام بيننا فلم تعد تقرفنا طالما أننا لم نعد نقرف من أنفسنا. أبى تذكره الله، جاءه كبد وبائى خلص عليه فى جمعتين، ثانى يوم على دفنه سحبت عربة البطاطا ووقفت بها فى مكانها فكان الله يرزقنى برزق العيال. وذات يوم زارتنا الداية، اتضح أنها سمسارة زواج للعرب، فاوضت أمى على أن تزوجنى لواحد منهم زواج متعة ولكن على سنة الله ورسوله بموجب عقد محدود المدة: الشهر بعشرة آلاف جنيه، شهران بعشرين، ثلاثة بثلاثين، وأحيانا لمدة أسبوع ولكن بعشرة آلاف أيضا. قلنا على بركة الله مادام شرعيا. أخذتنى السمسارة بعد أن شطفتنى وزينتنى على سنجة عشرة، ومعى مجموعة من البنات أجمل منى مائة مرة أدخلونا على الرجل لابس الدشداشة واحدة بعد أخرى، فلما جاء دورى نزل عن السرير إلى الكرسي، أمرنى أن أتمشى أمامه، أجلسنى على ركبته تحسس جسمي شبرا شبرا وأمسكه من كل حتة فيه، وكنت أعمل بنصيحة السمسارة فأستسلم له وأنا مبتسمة لكى يتفاءل بي، و بالفعل تفاءل، تزوجنى بعقد لمدة عشرين يوما لم يتركنى فيها ساعة واحدة حتى أخذ بحقه حلفا وعضعضنى حتى أسال دمى من فوق ومن تحت. عشرون ألفا نقلونا إلى دنيا جديدة، أكلنا وشبعنا واكتسينا. ماكادت الفلوس تجف حتى جاءتنا نفس السمسارة وأخذتنى إلى لابس دشداشة

جديد لكنه عجوز وأصبى من الصبى كان يأكل الديك الرومى بكامله ويتعطف على بنسائر يدسها فى فمي، ويشرب زجاجة ويسكى كاملة ويظل طول الليل يسخمط فىّ وأنا ربك والحق ملتذة وأقول فى سرى اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال، ثلاثة أشهر بثلاثين ألفا. انتقلنا إلى حجرة أوسع فى بيت على ناصية الحارة نفسها وأصبحت أنا وإخوتى البنات آخر جمال وآخر حلاوة ورعرعة، انتبهت إليهن السمسارة فكان رزقهن أوسع من رزقي، انتقلنا إلى شقة في مساكن شعبية جديدة فى الكيت كات. كل ذلك وحبيبى سعيد يتابع أخبارى ولا يبدو عليه الزعل، ومرة عزمته على الغداء في مطعم فى المهندسين لأنى كنت مشتاقة بالفعل للحبيب، ربنا أدخل فى قلبى الشفقة عليه، وكنت قد تزوجت ست مرات، فعاهدته أن أتزوج ثلاث مرات لأضمن وجود شقة نتزوج فيها ويكون هذا هو زواجى النهائي. ربنا يحبني، سهل إلى الزيجات الثلاث فى ثلاثة أشهر، أعطيت لسعيد ثمانين ألفا ليستأجر شقة ومحلا تحتها زعم أنه وجدهما، لكنه اختفى ولا أحد يعرف له طريق جُرة. قالوا لي: شوفى لك واحد محامي، فدلنى أولاد الحلال عليك فدبرني يا أستاذ: هل تنفع قضيتى هذه فى المحاكم؟

زفـــاف

آه يا وكستى ويا ذلي.. يا رجل الحكومة حلمك عليّ حتى ألقط نفسى وأتعرف على الجثة!.. بصى معى يا بنتى يا ولد الولد فأنا طرشانة عميانة خربانة! بصى يا عروس جيدا، شوفى هل هو أبوك أم أن بحر الترك غشنا فيه!

آه يا سكاكين كل الجزارين ارحمى قلب امرأة عجوز جاءت من أسيوط على ملا وجهها لتتسلم جثة الغالى ابن الغاليين الذين استرخصتهم الحكومة ورمت بهم وبالشعب المصرى كله فى الزبالة حتى يخلو الجو لها ولعيالها وحدهم.. اخرس وإلا وحق سيدى جلال أرقع لك أصداغك، تظنني أخاف من طرطورك والدبابير على صدرك ؟ ابعد عني، عيب أن تزغدني ولكن منذ متى تعرفون العيب؟ ياما أشطركم فى الظهور عند المصايب لتأخذوا العاطل بالباطل تحت أرجلكم لا فرق عندكم بين ظالم ومظلوم ناكس ومنكوس! أين كنتم حينما نصب علينا الريان وشفط دم قلب الولد وشقاء عمره؟ أين كنتم والغلاء يهرى أبداننا؟ أين كنتم وعبّارة واحد من ألاديشكم تأخذ بألف من عيالنا وتطعمهم للأسماك فى قاع البحر؟ شفيتم يا حكومة!

قلب أمك يا خويه! هو يا بنت؟ شوفى ودققى فأنا قلبى مقبوض ونفسى مكروش والوسواس يقول لى إنه هو.. غراب البين واقف فوق أعلى فرع فى شجرة قدام دارنا ينعق من يوم ما ركب أبوك سفينة الندامة! غراب البين أصدق من حكومتنا، ما نعق مرة إلا وعم الخراب ديارنا وطلسم وجه الفجر، وأنا الحزينة عمرى ما صدقت كلام الجرانين ولا الإذاعة والتليفزيون، يطلقون علينا ناسا حلانجية يأخذوننا فى عشرة أونطة لتحلية وجه الحكومة ويكذبون على طول الخط.. إن قالوا لن نرفع الأسعار فإنما يقصدون أنهم سيرفعون الأسعار. زوجى يا حبة عينى هاجر إلى صدام حسين فى العراق وتركنى عروسا لا يزال نقش الحنة فى يديها وقدميها، لم يكن يأتى سوى شهر واحد كل عام، عشرة شهور عمياء فى حضنه العرقان العيان، وعشر سنين يشقى فلما هده المرض عاد نهائيا وفى جيبه حزمة دورارات فيها كل مستقبلنا، لسنا فلاحين ولا تجار والرجل انهدت قواه، لسنا نثق فى الحكومة ولا بنوكها لنضع فيها فلوسنا، ليس قدامنا سوى شياطين تمشيخوا وتركوا لحاهم ولبسوا الجلباب القصير وسرقوا اسم أحد أبواب الجنة أطلقوه على أنفسهم وقالوا نحن أهل صلاح وتقوى نعطيكم أرباحا على فلوسكم أبرك من البنوك والتجارة والفلاحة مائة مرة، ونحن الذين نعرف الله ونقدره حق قدره. صدقنا الذين نصبوا علينا باسمه احتراما له سبحانه وتعالى فأعطيناهم تعب الرجل وشقاءه، شهر وشهران وثلاثة أتقن بها المجرم جريمته، و.. بحق من أوقفنى هذه الوقفة التى تُسقط الحبلى من أول ما رأيت ألاديش الحكومة يسبحون بحمد هذا المجرم ليل نهار لعب الفأر فى عبى وبعدها نعق غراب البين فوق الشجرة فاتضح صبيحة يومها أن دمنا شربه نصاب التقوى الملتحي،

وعجـز المدعـى الاشـتراكى عن الإتيان بحقنا إلا بضائع تالفة بارت علينا..
بعدها سافر ابنى إلى العراق بدلا من أبيه، نعق غراب البين فانقطش دماغ صـدام حـسين فهجـم علـى جارته الكويت وضمها لممتلكات العراق فقامت الدنـيا ولم تقعـد إلى الـيوم، لكـن ابن الحزينـة الأسيوطية عاد إلينا عريانا نـشفته الـصحراء ولكنـنا حمـدنا الله أنـه نفد بجلده وعاد، كانت حفيدتى هـذه العـروس عمـرها ثـلاث سنوات وأمهـا التعيـسة الجبانـة تركتها لنا وتـزوجت لأن ولـدى جاءتـه شظية فى محاشمه أثناء الهرب ضيَّعت عليه رجولـته فلـم يعـد فيه للنساء!.. صبرك بالله على، ستعرف حالا معنى ما أقـول.. ولدى المسكين نذر حياته لإسعاد ابنته، ولكن حسرة عليه، كيف يـسعدها يـا قلـب أمـه وبلـده مـنهوبة مدهوسـة تحـت جزمة ذلك المسمى بالحـزب الوطنـى حـسبى الله ونعـم الوكـيل فـيه؟ الولد طفح الدم فى شغل الفاعـل حتـى كـبرت ابنـته وأخـذت الشهادة الابتدائية وأصبحت عروسا محترمـة، جاءها الخطاب، خطبها تعيس مثلها ومتخرج فى الكلية لكنه دائـخ فـى كـل مكـان يكـتب للناس على الكمبيوتر بالأجر، ولدى صمم أن يـستر ابنـته بـشوار محـترم، وسـوس لـه شـيطان الهجـرة الذى يوسوس للـرجال والـشبان فـى محافظـة أسيوط، الولد كان عنده حمار حديد اسمه الفـزبة يقـضى بـه مـشاويره، باعـه، ودفـع للمقـاول سـتين ألـف جنـيه استكملها ببـيع مـصاغى وفـك شـهادات استثمار كان اشتراها لابنته فى أعـياد مـيلادها، وسـافر إلى سـوريا ليركـب مـنها البحر لتركيا ومنها إلى الـيونان كما قال لنا.. ولكن غراب البين نعق، إنه لا يكف عن النعيق هذه الأيـام وربنا لن يسترها أبدا والعياذ بالله.. ما لك يا بنت؟.. يا نهار أسود وملغمـط بـستين نـيلة!! البـنت سخسخت، اصفرت احترق دمها، امسك

معـى الله يخليك حتى أتحسس الجثة وأتأكد بنفسي. حبيببى أرأيت أيها الخفاش لماذا حكيت لك حكاية الشظية التى ضيعت عليه رجولته؟ ها هى ذى غائـرة فـى ثنـية الفخـذين لأن الرصاصـة دخلـت من هنا وخرجت من هـنا!.. الطمى يا عروس.. الطمى يا-مصر يا أم الأرامل واليتامى.. ولكن لا تموتـى يا حزينة، انهضى غصبا عنك وقومى لنزف أباك إلى قبره ولنحمد الله أن أعاده إلينا حتى ولو كان جثة.

قلبُ كلب!

سبحان الله يا جدعان! الولية امرأتى ربنا زرع فى قلبها الحنية على جميع الحيوانات ومن بينها الكلاب عدم المؤاخذة ولكن بشرط أن يكون بينها وبين الكلب مسافة، فلو تصادف أن احتك بها كلب متسول فى الطريق تعود إلى البيت تُخلع كل ثيابها، تلقى بها فى الغسالة ثم بعد الغسالة تشطفها بيديها بالماء سبع مرات حتى تتطهر الثياب من نجاسة الكلب!.. ولكن الكلاب- سبحان الله يا جدعان- لا تأكل من الأونطة، إنها تتعامل مع قلب الإنسان مباشرة ولا يغرنها شخط أو طرد أو حتى قذف بالطوب، ولهذا فمعظم الكلاب فى حينا السكنى البعيد ما إن ترانا خارجين أو عائدين حتى تتهافت مهرولة نحونا ثم تحمحم حول امرأتى وتتمسح بذيل ثوبها وامرأتى تصرخ وتسب وقد تصب غيظها فى ضربة ببوز حذائها فى بوز كلب لو تلقى مثلها منى أو من امرأة غيرها لقرم القدم فى قضمة انتقامية. إلا أن هذا الكلب بالذات، الذى يتلقى منها أعنف الضربات لأنه يتسبب فى تعطيلها عن بعض الصلوات هو أشد كلاب الحى حفاوة بها وحبا عميقا لها، لعله يشعر بأن لها أفضالا عظيمة عليه تجعله كلما رآها بادرها برقصة ابتهاج يعبر فيها عن شكره وتقديره،

وقد يذب عنها الكلاب الأخرى فيدخل فى معركة دامية يعود منها مثخنا بالجروح والآلام. غير أن الولية ليس يلزمها هذا الاحتفال لكنه لا يريد أن يفهم. الولية أوشكت أن تسبب لى عقدة نفساوية تخلينى لا أنام، فأنا الجزار واللحوم مهنتي، دماء الذبائح وروائحها ساكنة فى أنسجة ملابسى كنت أتوقع أن تكون هذه الحفاوة لى أنا ولو على سبيل النفاق والمداهنة.. إنما الكلاب لئيمة، تتنطع أمام دكانى فى سأم إذ إنها واثقة أن قطع العظم التى سألقى بها لن تستحق عناء العراك. ويبدو أن الكلاب تحكى لبعضها بعضا عن صنوف البشر، ذلك أن كلاب الحى السكنى لا تقيم لى وزنا على الإطلاق إذا ما رأتنى بمفردي، بل منعت نفسها منعا باتا من الاقتراب من بيتى أو الحومان حول سوره المزروع رغم أننا كثيرا ما نترك زبالتنا لصقه إلى أن تفوت عربة الحى فتأخذها أو بمعنى أصح تنثرها على قارعة الطريق.. إلا هذا الكلب الذى تحنو امرأتى وتقسو عليه فى نفس الوقت.

بيتى فى ضاحية قرب حلوان يختلط فيها العشوائى بالمقسم، كنت آمل أن يشاركنى فيه عيالى لكنهم تزوجوا وسكنوا فى شقق فى العمران والأبهة ربنا يسهل لهم ولعبيده. امرأتى اعتادت الطبخ يوميا، ونحن فضلة خيركم لا نأكل البايت أبدا، فأين تذهب بقية الدكر البط أو العكاوى أو أفخاذ الدجاج أو هبر من الفائض؟ وليس عندنا بواب، وإذن فكل هذا الفائض من نصيب هذا الكلب اللطيف، يأتى كل يوم إلى الفراندة الخارجية فيجد كيسا فيه أفخاذ ومكرونة فرن وأرز بالفتة وأحيانا كباب وكفتة، هنيئا له رزقه، لكننا بدأنا نلاحظ أنه ببراعة يبرم أطراف الكيس البلاستيك الأسود جيدا، ثم يقبض عليه بأسنانه ويختفى ليعود

بعد هنيهة تقصر أو تطول وليس يبدو عليه أنه قد أكل شيئا، فلابد أن الكلاب تهاجمه فى الطريق وتحرمه منه.

استفزنى الكلب عدم المؤاخذة، ترصدته، قطرته، فإذا به يهرول إلى العشش العشوائية القريبة منا، دخلت وراءه العشش. على باب إحدى العشش كانت فى انتظاره صبية فاتنة مع أنها صدئة رثة الثياب، تلقته فى حضنها، أخذت الكيس منه ثم واجهتنى فى قليل من التحدى اللطيف: فيه إيه يا ابا الحاج ؟ ده كلب بيجرى علينا هو اللى بيأكلنا وأنا اللى مدرباه على كده.. يلزم أيها خدمة؟!

شبحُ الغروب

ذات يوم ليس بالبعيد كان الأستاذ قاسم جعفر- أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة مصرية عريقة- جالسا في شرفة شقته المطلة على الشارع العمومي، فرأى امرأة تلبس الأسود في أسود لا يبين منها سوى عينين تبرقان، تدخل عمارتهم ثم التقاها بعد أيام أمام مصعد العمارة فانسحب ليصعد السلم على قدميه إلى شقته في الطابق فوق الأرضي. وبعد أيام أخرى رآها تدخل عمارة مجاورة، ولما كان قد تركها في عمارتهم لتوه ثم رآها في نفس الوقت في مدخل عمارة رابعة تأكد له أنها يمكن أن تكون نسخة متعددة من أصل واحد في مكان مجهول. ولم تكن لتلفت انتباهه أكثر من ذلك لولا أنه ذات مساء لاحظ أن زوجه الحبيبة إكرام تتحدث كثيرا في الهاتف، فلما رأت الفضول في عينيه قالت له إن جارتهم ساكنة نفس الشقة في الطابق الثالث تلح عليها في الدعوة لزيارتها في شقتها لتستمع إلى كلمتين مفيدتين من داعية واعظة سوف تحلف بحياتها حين تسمعها وسوف يفوتها نصف عمرها إن لم تسمعها، ثم قالت إكرام لزوجها إنها تريد أن تتخلص من إلحاح هذه الجارة فتزورها ولو لمرة واحدة على سبيل برو العتب. ورغم أن الأستاذ قاسم كان

ممتعضا ومتوجسا من هذه الدعوة الملحاحة فإنه لم يشأ منع زوجه من تلبيتها على سبيل الاستطلاع على الأقل.. ولكن الزيارة ما لبثت حتى باتت طقسا يوميا أربك حياة الأسرة وملأها بالتوتر، ثلاث ساعات كل يوم يقضيها الأب والولدان فى انتظار نزول الأم من الجلسة الوعظية..

حاول الأستاذ قاسم إيقاف هذه المشغلة أو تحديدها بجلسة أسبوعية ولتكن يوم الجمعة مثلا، فلقى مقاومة أشعرته بأن الطلاق ربما يكون أسهل من التفريق بين زوجه وهذه الجلسة الوعظية التى أدمنتها. حاول الدفاع عن حق الولدين فى وقتها ذاك المهدر؛ فإذا به يكتشف أن الولدين محبان لما تفعله أمهما، إذ إنها كل يوم تنفرد بهما فى حجرتهما وتعيد عليهما ما سمعته من الواعظة فى انبهار وتهجد، فينبهر الولدان بما تحكي، ويتناوبان فى حفظ ما سمعاه من عبارات عتيقة مصكوكة عن عذاب القبر الموصل إلى جهنم بكل الفسقة الفجرة الساهين عن صلاتهم. تعلم الولدان الوسوسة فى الوضوء وفى الصلاة لدرجة أن الواحد منهما يعيد الوضوء والصلاة أكثر من مرة حتى يتأكد أن إبليس لم يتسلل إلى عقله عند هذه أو تلك، وإبليس هذا هو كل شأن من شئون الدنيا والحياة يفكر فيه الإنسان أثناء الوضوء وأثناء الصلاة، فبات الولدان كعجوزين أحمقين يراجعانه فى وضوئه وفى صلاته وفى كل شيء يفعله تقريبا وخاصة فى الفرجة على التليفزيون؛ حيث لم يعد يحق له أن يتفرج على مباراة كرة قدم أو تمثيلية أو فيلم سينمائى فى حين أنهم يريدون الفرجة على عمرو خالد والقنوات الدينية الكثيرة المحترمة. المصيبة أن ثلاثتهم – زوجه وولداه– أصبحوا يشمئزون من الكتب التى تحويها مكتبته باعتبارها لا تحوى سوى علوم دنيوية أوعز بها الشيطان إلى بنى البشر.

وصحيح أن الأستاذ قاسم- زميلنا ونعرفه- كان مؤمنا عميق الإيمان صافى القب يقظ الضمير يتقى الله ويرعى حدوده فى كل شيء يفعله أو كلمة يقولها أو درس يلقيه، إلا أنه حين أحيط بمظاهر الدروشة وفرضت عليه فى البيت حالة تحيله إلى محض إنسان من الدهماء لا عمل له إلا التعبد والصلاة كهدف واحد ووحيد، تضخمت في نفسه مشاعر المقاومة فأدت به إلى العناد: يصلى كما يحلو له فى أى وقت يشاء بالطريقة التى يشاء، يمعن فى قراءة ما يسمع بأنه مرفوض من الكتب، اشترى لنفسه جهاز تلفاز صغير وضعه فى حجرة مكتبه ليتفرج على الأفلام والمباريات على كيف كيفه، يصرخ فيمن يحتج، يتأهب للضرب إن طال الاحتجاج، بل جهز كرباجا أخفاه ليظهره عند اللزوم. وكان من الصعب على تربوى أن يستخدم الكرباج ولكنه فى نفس الوقت كان من الصعب عليه أن يفقد سيطرته تماما على زوجه وولديه، والأصعب أن يستسلم لليأس، لكنه لم يكن يملك إلا الاستسلام، فوقع فريسة للاكتئاب الحاد ولم نستطع نحن زملاءه أن نخرجه منه بأى حال من الأحوال. كان يهذى طوال الوقت الذى يقضيه معنا فنعرف من هذيانه أنه تم عزله؛ فزوجه لا تغسل ثيابه فيضطر إلى غسلها بيديه، فى الصباح لا يجد من يقدم له فطورا فيبحث فى المطبخ عن بقايا فتات وتلقيمة شاي، إن خرج من البيت وعاد آخر النهار لا يجد غداء أو عشاء.. آخرة الزهق هج من البيت، جمع ثيابه فى حقيبة سفر وغادر يبحث عن عقله وحريته فى أى مكان، هكذا قال لى بواب العمارة يوم ذهبت أسأل عنه بعد اختفائه لشهور طويلة، وإذ شعرت أن البواب متعاطف معه وملم بحكايته سألته: « ألم يقل لك أين ينوى الذهاب؟» قال البواب : «لا والله يا بك لو أعلم كنت حصلته فأنا مثله

مـضروب فـى حريمى حصل لهن نفس اللطف والعياذ بالله!» فانقبض قلبى وانصرفت مبلبل الخواطر تتنازعنى الرغبة فى العودة إلى بيتى أو الذهاب إلى الكافـيتريا التـى يلتقـى فـيها زملاؤنا مساء كل يوم لعل قاسم يكون قد لجـأ إلـيهم هـناك أو علـى الأقـل تـرك لهم خبره فإن لم يكن فلأبلغهم أنا ونفكـر فى كيفية استنقاذه من هذا المصير التعس. بعد قليل فوجئت بأننى فـى الطريق إلى بيتي، ثم فوجئت بأن الغروب قد حل فى لمح بالبصر وثمة شبح يلـبس الأسـود فى أسود لا يبين منه سوى عينين يطل منهما وميض خاطـف، خـيل إلى أنـه يـتجه نحو باب عمارتنا، فإذا بى أصرخ من فزع: «لأه»، ثـم أهـرول كـى أسبقه إلى الدخول، وكنت أعرف أننى أبدو للناس كالمجـنون؛ ولكنـى مـنذ رأيته يتحدانى ويسبقنى إلى باب المصعد ويدوس بكـبرياء وغطرسـة علـى آخر زر أصبحت أشعر كأن عقلى تفككت روابطه فـصار يهتـز ويشخـشخ لأقـل حركة ثم يرتج كلما شخص فى ناظريه شبح أسود يعبر الطريق.

نارُ الجنَّة

جارنـا العربجـى صـاحب الـشقة الأرضـية فـى البـيت العتـيق الذى أسـكنه فى الشقة الفوقية لشقة العربجى مباشرة، باع شقته بمبلغ يساوى ثمـن بيوت حارتنا كلها فى شبرا النملة. ربنا يبارك له فيه على كل حال فاللـهم لا حـسد، وإنمـا الـذى اشـتراها كـسبها فعلا، فالبيت على ناصية الحـارة ومطل على الشارع العمومي، إنه فكهانى ذكى وصاحب جناين فى الفيوم- ربنا يعطينا ويعطيك- تجرى فيها الخيول فلا تجيء بآخرها كما يقـول عمالـه. الواقـع يـبرهن على ذلك والفلوس تتكلم؛ رفع الجدار المطل علـى الـشارع العمومـى جعلـه بابـا واسـعا فـصار القديم جانبيا، من حسن حظـنا حقـن أساسات البيت بمواد مقوية، دهن واجهـة البيت كلها باللون الـوردي، مـلأ الـدكان بالمـرايا ولمـبات النـيون القرمـزية اللـون، الأرض والـسقف بالموازيـيك تـتخلله شـرائح مـن مـرايا تدور فيها مراوح السقف تجعلـه يـبدو كبحـر الإسـكندرية، مـدرجات الفاكهـة ارتصت فى الداخل والخـارج جعلـت لرصـيفى الحـارة والشارع رونقا وجعل أهل الحارة كلهم تـتغير سـحنهم إذ يبدو الجميع كأنهم فى بهجة واستبشار، كأنهم كانوا فـى جرة وطلعوا برة على وش الدنيا مع أن حارتنا عبارة عن علب وأحقاق

من الأسمنت المعجون في الرطوبة الكالحة غارقة ليل نهار في رائحة عبارة عن عجينة من روايح الصرف غير الصحى والزبالة والعرق وعفن الثياب القديمة. ومن هنا جاء الفضل الثانى لمحل الفاكهة إذ إن عجينة أقوى وأكثر إنسانية تتصل بروائح الجنة هى مزيج من التفاح والكمثرى والمانجو والكريز والبرقوق والمشمش ناهيك عن الفاكهة الشعبية كالجوافة والبلح واليوسفندى والبرتقال، طغت على عجينة الحارة فبدأنا نشعر بأننا صرنا من الناس المحترمين، حقا يا أسيادنا، ربما يكون الفرق بين الجنة والجحيم فرقا بين رائحتين: رائحة الموت فى الحارة ورائحة الحياة فى معرض الفاكهة..

لكن المشكلة أن وجود معرض للفاكهة بهذا الحجم وهذا المنظر الملعلط بأضواء الفاكهة التى ترى اللمبات نفسها فيها أدخل فى وهم عيالنا أن فاكهة أولاد الذوات التى يقرأون عنها فى كتب الدراسة كالتين والخوخ والتفاح والموز وما إلى ذلك قد صارت قريبة جدا وبإمكانهم رؤيتها والتشبع من روائحها إلى أن تجيء الخطوة الثانية عن قريب: أن تصل إلى أيديهم ليذوقوها لإدراك الفروق بينها وبين الجميز والجوافة والبلح والحرنكش وغيرها من إخوتنا. ولأنى أسكن فوق المعرض مباشرة فكان من باب الذوق أن أنزل ليلة الافتتاح كى أبارك وأهنئ وفى نفس الوقت- وهذا هو الأهم -أبرز شخصيتى التى يجب أن تكون جديرة بالاحترام فى نظر جارنا الجديد وعماله باعتبارى من حملة ليسانس الحقوق وأعمل موظفا بالشئون الإدارية لهيئة النقل العام. لبست بدلة كاملة طبعا، تعلقت بى ابنتى رشا آخر العنقود التى ستدخل المدرسة هذا العام، تهنا فى الأضواء بين الأقفاص والمرايا والروائح المنعشة، تسمرت رشا أمام مدرج التفاح،

قالت فى حذر: بابا! الكيلو من ده بكام ؟ قلت فى وجل مشيرا إلى ورقة السعر: تمنتاشر جنيه يا رشا! شهقت البنت وجحظت عيناها، لكنها ما لبثت حتى سألتنى: هو الكيلو يطلع كام واحدة! قلت: حوالى ستة. هزت رأسها صائحة فى سرعة كأنها تلعب معى لعبة لطيفة: يعنى الواحدة بكام؟ قلت أجاريها: بتلاتة جنيه!. شهقت فى استهوال وسحبتنى، هى التى سحبتنى - خل بالك- لنخرج كأننا -كما تجسد على وجهها- دخلنا المكان الخطأ. وقد خرجنا بالفعل ولكن المحل لم يخرج من حياتنا وكيف يخرج بحق الله؟ فبعد أيام قليلة قرصتنى رشا فى قلبى قرصة طلعت بالدم، إذ أخذتنى على جنب، وملست بيدها الدقيقة الجميلة على صدرى ثم قالت فى وجل كأنها امرأة عجوز: بابا.. ألاقيش معاك تلاته جنيه سلف؟

لغز الأنثى

قدمها لى صديقى باقتضاب كأننى أعرفها من قبل: «المهندسة هبة». فلما ظهر على وجهى أننى فى انتظار بقية التعريف صاح مندهشا: «إنها بنت صديقك القديم هلال بشر!» .المفاجأة ألجمت لسانى لبرهة ارتجت فيها ذاكرتى ارتجاجا عنيفا اضطربت فيه كل الصور كأن ريحا عصفت بأوراق دفتر الذكريات ففصلتها وبعثرتها: هلال بشر كان أحد أهم أعضاء شلة أتيليه القاهرة طوال مراحل الصبا والشباب والشيخوخة، جمعتنا مدارس المنيرة الابتدائية والثانوية، كنا خمسة من أحياء مجاورة لحى المنيرة، قاربت بيننا هواية الرسم والتصوير، التحقنا معا بكلية الفنون الجميلة وتخرجنا فى عام واحد وكان هو أسبقنا فى الالتحاق بعضوية الأتيليه عن طريق الدكتور حسن فهمى صديق والده، أصبحنا نؤازره فى الترشيح لعضوية مجلس الإدارة لعدة دورات متعاقبة، كلنا تزوجنا مبكرا إلا هو قد آثر حياة العزوبة والصرمحة، ليس لأنه صرماح وإنما لأنه مضروب بالسياسة وعضو فى تنظيم ماركسى سرى وقد تعرض للاعتقال أكثر من مرة، وكان معيدا بالكلية فتعطل مشروعه العلمى وأهمل فى كتابة بحثه لرسالة الماجستير فاشتغل مهندسا للديكور وحاول أن يروج

لاسمه فى حقول الدراما المسرحية والسينمائية والتليفزيونية فقدم أعمالا ناجحة هنا وهناك وكسب كثيرا من الأموال إلا أنه كان يبددها أولا بأول فى حياة بوهيمية نهمة، ثم سافر إلى العراق مقتحما ميدانا جديدا عليه هو التوضيب والإخراج الصحفى فعمل فى الصحافة الثقافية مشرفا فنيا لما يقرب من عشر سنوات عاد بعدها بكيس من الدولارات، اشترى شقة فى مدينة نصر، فرشها على مزاجه بشكل مزدوج، منها مرسم ومنها منتجع يقضى فيه شيخوخته، كان قد أكمل الخمسين من عمره دون أن تتغضن بشرة وجهه أو يصيبه أى هزال، إنما الحياة وقد توفرت أسبابها أصابته بالسأم والكآبة، سعى إلى العمل فى وظيفة تشغله، افتتح مكتبا لهندسة الديكور، نشر فى الجريدة إعلانا يطلب سكرتيرة ذات مواصفات معينة، جاءته فتاة دون العشرين من عمرها وجلست أمامه ليمتحنها، أذهله جمالها رغم فقرها وتواضع ملبسها، كانت إلى ذلك لبقة ذكية ذات وفرة فى المعلومات العامة إضافة إلى أنها متخرجة مثله فى كلية الفنون الجميلة قسم التصوير. أول ما رأته استراحت لشكله الوسيم الوديع ولصوته الدافئ ورقة مفرداته المليئة بالحنو، فى اليوم التالى مباشرة كانت تجلس فى صدارة المكتب تتأهب لاستقبال الزبائن الراغبين فى تجميل بيوتهم، قبل أن يكتمل الأسبوع كان طائر الحب قد أظلهما تحت جناحيه وبعث فى طلب المأذون ليعقد قرانهما.. كلنا رفضنا تلك الزيجة، بعضنا لوح بأن هلال قد غرر بالفتاة، بعضنا الآخر كان حاقدا عليه لأنه وهو فى تلك السن الحرجة يستحوذ على هذا الكنز الثمين من الجمال والأنوثة الفتية.. وطوال ما يقرب من ربع قرن صرنا لا نلتقى إلا صدفة، فنلاحظ عند اللقاء أنه سعيد جدا فى حياته الزوجية وأنه أنجب بنتين وولدا، إلى

أن توفى عن خمسة وسبعين عاما منذ حوالى عامين، ومن سخف الزمان وخسة الأيام أننا لم نعلم بوفاته إلا بعد أن فات أوان العزاء كما أن أحدا منا لم يكن يعرف عنوان بيته على وجه الدقة. وأخيرا.. ها هى ذى الحقيقة المشرقة تثبت أننا كنا على خطأ حين توقعنا الفشل لتلك الزيجة، ها هى ذى قد نجحت وأثمرت مهندسة فى نفس تخصص أبيها.

فتحت ذراعى فارتمت فى حضنى فكأننى أحضن أباها بكل حذافيره، وجها وقواما وروحا ونفس البسمة الدائرية كتقويرة حول أسنان ناصعة البياض دقيقة الحجم. ثم جلسنا إلى منضدة فى حديقة نادى الصيد، لقد جئت مدعوا للتسجيل فى فقرة حوارية ضمن برنامج تليفزيونى شهير، أما هى فكانت تتمرن على الإخراج التليفزيونى فى هذا البرنامج. قلت لها: «كلمينى عنك وعن إخوتك!». قالت إن أختها الكبرى مصممة ملابس فى التليفزيون المصري، وإن أخاها لا يزال فى الثانوية العامة، ثم قدمت لى القهوة وسيجارة من علبتها وأشعلت لى ولها. قلت فى اغتباط: «زواج أمك من أبيك تجربة ناجحة على عكس ما تصورنا جميعا وإني لسعيد بأن التجربة أثبتت ضيق أفقنا!». لوحت هبة بأصبعها فى حركة نفى قاطع: «لا! حضرتك! لا.. كان رأيكم صائبا مائة فى المائة! تجربة أمى مع أبى كانت فى منتهى التعاسة! مأساة! لدرجة أنني- وأختى الكبرى من قبلي- سعيت بنفسى لتطليق أمى من أبى وفى كل مرة كان الطلاق يتعطل فى اللحظة الأخيرة إشفاقا على أبى الذى لم يعد يملك مالا يشترى به أو حتى يستأجر بيتا يأويه! وأخيرا أراحه القبر وآواه!».

عندئذ مر من أمامنا أستاذ مشهور هو أحد كبار العلماء فى جراحة القلب، كان يتأبط زوجه ويمضى فى انشراح نحو البوفيه. هو فى الخامسة والثمانين – على الأقل – من عمره لكنه عملاق متماسك بمشية تشهد بلياقة بدنية، أما زوجه ففى الثلاثينيات من عمرها على الأكثر، كانت تلميذته فى جامعة القاهرة التى يعمل بها أستاذا زائرا، وكانت قصتها مادة صحفية إلى وقت قريب. راحت هبة تشيعهما بنظرة اغتباط مبتهجة ثم قالت بنبرة التمني: «يا بختك يا هناكِ! عقبالى يا رب فى عريس مفتخر كهذا!». عوج الذهول رقبتى نحوها بنظرة تطق شررا، سألتها: «تكررين تجربة أمك؟!». قالت ببساطة المتودكين فى الحياة: «شوف حضرتك! الزواج هو الحياة والحياة هى الزواج! والزواج مثل البحر الواسع الغويط! والبحر واحد! واحد! لكن السمك ألوان! والمهارة فى الصيد ما تغنيش عن الحظ! والحظ بتاع ربنا!». بقيت رقبتى معووجة ونظرتى متجمدة، وكان صوت ضحكتها الرنانة يتفتت على النجيلة من خلفها وهى تهرول ملبية نداء المخرج عند مدخل البوفيه.

الميزان القاتل

يـا باشا صدقني، عزت واد عمى غلطان وستة آلاف غلطان فى بعض، ودّانا فى داهية فهل هناك بعد ذلك غلط؟.. لكنه معذور والله العظيم وحياة سيدى عبد الرحيم.. اصبر عليّ سيادتك.. سأحكى لك الحكاية من أولها: صل على النبي!.. عزت واد عمى قناوى غشيم وجاء ليأكل عيشا فى مصر، يا رب كما خلقتني، لولا الجلباب الذى يستره لكان كما ولدته أمه.. ليس له أحد فى مصر غير العبد لله، والعبد لله أفقر منه لا يدارينى غير ستر الله والأمانـة وكلمـة الـشرف.. كـل مـا فـى الأمـر أننـى طفشت قبله بسنوات فأصبحت مـتودكا علـى شـغل الـسوق، والـتحايل علـى الرزق بالسبوبة.. يوماتـى علـى الله أكـون فـى سـوق العـبور فـى المـوعد المضبوط: أنا والصبح نتقابل معا على بوابة السوق الذى علمنى مفتاح الرزق: يا مبدَّر يا حرامى الـسوق.. المعلمـون أصـحاب المزادات أصبحوا يتفاءلون بطلوعى عليهم مع نـور الـصبح، يـثقون فيّ، يفوتـون لى شـروة أوطـة، قفـصين عنب، شوالين بطـاطس، شـوية تفـاح بلـدي، حمـولة برتقال سفندى جوافة كله برزقه، لـيس معـى فلـوس أدفعهـا، رسمالى هو الأمانة، أسلم فلوس الأمس وآخذ بضاعة اليوم وأتكل على الله تحملنى العربة السيزوكى بتاع رمضان عريجة

توصلنى لصقر قريش لأفرش على ناصية حارة فى الشارع العمومي.. أنا كما قلت لسعادتك متودك، عين على البضاعة بتاع الناس والزبائن وعين على الشارع تترقب شرطة المرافق التى تطب فوق دماغنا مثل القضا المستعجل، أصبحت أشم رائحتهم وأسمع صوتهم قبل وصولهم بمسافة كافية فبسرعة أحمل الأقفاص وأداريها فى مدخل العمارة وأطرح المشمع فوق ما أعجز عن حمله حتى إذا ما طبت الشرطة وجدتنى واقفا بلبوصا لكننى مفتح ومخى شغال، الورقة أم عشرة جنيه مطوية فى كفي، أتحكك فى أمين الشرطة وأغمزه بها فيسحب جيشه ويمشي..

عزت واد عمى غشيم، أعطيته بضاعة من عندي، استأجرت له عربة يد، قلت له: اسرح فى شارع صقر قريش وحواريه وإن شاء الله ربنا يرزقك.. فرزقه الله بشرطة المرافق بعد خطوتين.. أخذت منه العربة بكل ما عليها وتركته يلطم على بتاع الناس.. ضاعت العربة فى ديوان المحافظة وتحملت أنا وواد عمى ثمنها.. بعد كم يوم طبوا على دماغه فى أول الشارع، أخذوا العربة بما عليها.. ثالث مرة استأجر تاكسيا وقطر سيارتهم، دخل وراءهم بوابة سور مجرى العيون، فرآهم يتوقفون فى دروة، ينزلون، يقتسمون البضاعة المنهوبة، ينتقون أطايب الفاكهة والخضراوات للباشوات الضباط، وأقل منها قليلا لأمناء الشرطة، والباقى تقاسمه المخبرون الثلاثة، ركب كل منهم بحمولته فى سيارات خاصة كانت فى انتظارهم فى هذا المقسم أما عربة المحافظة فاتجهت إلى مبنى ديوان المحافظة حاملة عربات اليد وأقفاصا فارغة إلا من النقاضة التى نرمى بها نحن فى الزبالة بعد أن تفعصت..

جـاء يبلغنــي فـضحكت لأنى عارف بما يحصل، وعلمته كيف يفتح مخــه لكـنـه مسكين ليس فى جيبه راقوبة يدفعها قبل الاستفتاح. المهم يا باشا واد عمى قال: أجرب حظى للمرة الأخيرة، ما كاد يتحرك إلا وطبت العفاريـت، واد عمـى شـتّ مـنه عقلـه بمجـرد ما رأى المخبر يستوقفه!.. وحـق سـيدى عـبد الـرحيم يا باشا واد عمى ما فكر فى قتل المخبر هو كان خائفـا على الميزان! ثلاثة موازين سابقة ضاعت عليه وهو مديون بثمنـها، كـل همــه الآن أن ينقذ الميزان هذه المرة، لم يكن يدرى أن مخبرا ثانيا جاء مـن ورائـه لحظـة أن كـان واد عمـى يطوح بالميزان فى اتجاهى لكى أتلقفه وأهـرب بـه، الـرمية كانـت قـوية رمية خوف وغيظ أعمى العين، الميزان ثقـيل، لبس فى صرصور أذن المخبر فجندله على الأرض يطرش الدم، هذا قدره، وهذه شهادتى لوجه الله، واد عمى هرب، وحق سيدى عبد الرحيم مـا أعـرف له مكان.. سايق عليك النبى يا باشا تتركنى أرجع أشوف بتاع الناس جرى له ماذا.. أنتم قبضتم على الميزان القاتل، وسوف تقبضون على المـتهم ولكـن اعملـوا معـروف: وأنـتم تطاردوننا فى رزقنا لا تقبضوا على الموازين وتضيعوها فى ديوان المحافظة.

ميلادُ الشُّموع

كنا نحتفل بعيد الميلاد الأول لحفيد صديقى عبد الرشيد الذى تزوج معى فى عام واحد، ثم قدر له أن يتعادل معى فى الإنجاب حيث رزق كل منا بأربعة أولاد، إلا أنه خالفنى فى كونه أنجب ثلاثة ذكور وبنتاً واحدة فيما أنجبت أنا ولدين وبنتين.

على ضوء الشمعة الواحدة، وحيث الطفل الجميل المشرق الوجه يميل عن صدر أمه فى نزق ليطفئ الشمعة بنفخة واهنة ذات صفير، انخطف الزمان فى عينى كومضة أشعرتنى بأن ربوة السنين الطويلة التى نقف عليها على ارتفاعها لم تقربنا من تخوم الأمنيات الشاهقة التى حلمنا بها لأولادنا، مع هذا لم يتوقف تدفق البهجة فى صدورنا كأننا حققنا كل الطموحات.

رحت أرقب وجه صديقى عبد الرشيد، قد دار بخلدى أن نفس المشاعر التى تمور فى داخلى تمور فى داخله ربما بنفس المفردات بنفس الحرارة.. إلا أننى شغلت بهذا التناقض الحاد بين وجهه اليوم ووجهه ليلة زفاف ابنته منى قبل عام ونصف العام تقريبا..

ليلتها كان فى أشد حالات الكدر والكآبة إلى حد لفت أنظار العائلتين، عائلة العريس وعائلة العروس لولا أنهم تجاوزوها عن طيب خاطر وأريحية مصرية متسامحة. الواقع أن حالته ليلة دخلة ابنته منى على عريسها عمرو المحامى تحت التمرين فى مكتب أحد كبار المحامين المرموقين كانت ذروة لما عاشه منذ بدأت المفاوضات الأولية بين أهل العريس وبينه. فى البداية كان يتكتم الأمر ويشعر بحرج كبير إذا فاتحه أحد فى أمر هذا الخبر، يقول كأنه يقرر بديهة لا داعى للكلام حولها: «جواز إيه يا راجل.. البنت لسه طفلة»، ثم يستطرد محذرا: «مش عايزين نفتح عين البنت على المواضيع دى.. لسه بدرى على الكلام ده!». وربما كان هو نفسه غير مقتنع بما يقول، إذ هو يعرف على الأقل أن ابنته منى قد تخرجت بالفعل فى كلية التجارة الخارجية وهو بنفسه يسعى لإلحاقها بوظيفة مهمة فى إحدى شركات الاستثمار فكيف تكون لا تزال طفلة؟!.. على أن الضغط عليه كان أقوى من مكابراته، فالسيدة حرمه أم منى على درجة كبيرة من الذكاء والوعى واللباقة، إنها أستاذة فى كلية الشريعة، تعرف أن ابنتها ميالة للعريس المنتظر، تعرف كذلك أن هذا العريس ينتمى لأسرة كبيرة مشمولة بالثراء المادى ومستحوذة على كبريات المناصب فى كثير من الجهات، تدرك أنه يحب ابنتها بحق، أكبر دليل على ذلك احتماله للردود الخشنة والتسويف المطوط من جانب زوجها فى حين يستطيع عمرو أن يتزوج من إحدى كبريات العائلات.. موقف عمرو هذا إن كان يعكس حبه لمنى وتمسكه بها فإنه يعكس كذلك وعيا كبيرا وإحساسا نقيا بقيمة المصاهرة، إن حبه لمنى واقتناعه بها هو فى نفس الوقت احترام شديد لأبيها، تمسكه بمنى هو إصرار على الحظوة

بـشرف مصاهرة زوجها دون غيره، فعبد الرشيد زوجها يعتبر من أنظف وأشرف مـن عرفت بين جميع المثقفين فى مصر، ولولا حياؤه وشدة تعففه وترفعه لكان من أشهر نجوم الاقتصاد والسياسة فى العالم العربي. إن كان عـدم اشـتهاره ولمعانـه بـرغم كفاءتـه كأستاذ جامعى كفء لمنصب الوزارة يبدو لغزا فى نظر البعض فإن موقفه من زواج ابنته بات حينذاك أكبر لغز غـير قابـل للحـل، كـان هـو مـدركا لهـذا، فوقـع فـى حالة من الاضطراب وضـعته على حافة التوتر لأقل سبب؛ بات موزع العاطفة بين حبه لابنتـه والإحـساس بـأن هـناك من يتآمر عليه ليخطفها منه إلى الأبد. أشد ما كان يـؤلمه إحـساسه بـأن ابنتـه تكاد تقع فريسة للكآبة والتشاؤم بسبب هروبه الـدائم مـن ملاقاة خطيبها الملحاح، كانت تبتسم في وجهـه حياء ومجاملة وفـى عينـيها ضـراعة تهـيب به أن يخفف من غلوائه ويراجع موقفه ذاك المتـشدد بغـير مـبرر منطقى مفهوم. هكذا كان يشاجننى فى لحظات صفاء مخـتطفة. فـى لحظة من تلك اللحظات الحميمة وفيما كنا نجلس منفردين فـى ركـن قصى من مقهى الفيشاوى فى وقت متأخر من الليل فوجئت به- بعـدِ طول صمت- ينفجر باكيا كالمقهور، راح يردد كلمات لم أكن أتوقعها فحـسب بـل سبق لى أن رددتهـا لنفسي وللمقربين إلى أثناء إجراء خطوبة ابنتي الكبرى: لقد كانت هى ابنتي، وأمي فى نفس الوقت فما كدت أشعر بالسعادة إذ أرى أمي الجديدة تنضج وتستأنف الحنو عليَّ حتى يجيء من ينتـزعها منـى ويحرمنـى عطفهـا وحنانها.. إلخ إلخ.. إلا أنه فى النهاية وافـق علـى زواجهـا خضوعا لسنة الحياة التى لا نملك لها تبديلا أو حتى تعـديلا. وكـان منظـره لـيلة زفاف ابنته منى مثيرا لغيظ من لا يعرفونه،

باعثا على الضحك لمن يعرفونه، حينما خلع ذراع ابنته من تحت إبطه عنوة ليسلمها للعريس بوجه مكلبظ مكشر كأنه يقول: حار ونار.

ها هو ذا اليوم يحمل حفيده على صدره، يمطره بوابل من القبلات، يموء في أذنيه كالقطط، يرفع عينيه المبتهجتين هاتفا في مرح: أجمل شيء في الحياة أن تتزوج ابنتك! بالذات ابنتك! لتنجب لك أولادا يشبهونك في كل شيء.

مصرية

المقهى الذى اعتدنا الجلوس فيه في وسط مدينة القاهرة هو في نفس الـوقت مطعم وبار ويطل على شارع عمومى رئيس يمتد من ميدان التحرير إلى باب الحديد.

أمـا المطعـم والـبار فقاعـة طولـية مقفلـة، وأمـا المقهى فإنه عبارة عن شـريحـة مقتطعة من ممر جانبى يربط بين الشارع العمومى وشارع خلفي، ممـتدة فـى العمـق إلى حـدود القاعـة المقفلـة. فـى هـذه الـشريحة تـرتص الترابيـزات والكراسى على ثلاثة صفوف تفصل بينها ممرات للحركة. فى الـشتاء تغطـى هـذه الـشريحة بقمـاش الخـيم، وفـى الصيف تترك عارية فتتحول إلى ملقف هواء منعش.

المطعـم والمقهـى كلاهمـا علـى الطـراز الفرنسي، المطعم يقدم إلى جوار الطعام جميع المشروبات الروحية، والمقهى يقدم جميع المشروبات الساخنة ولا يقدم النارجيلة.

نظـرا لأهمية الموقع وجمال المقهى وتاريخها الطويل فإنها- تقريبا- أشـهر مقهـى فـى مصر، ولهذا يؤمها أرهاط من المثقفين من مختلف المهن والمـشارب: مـن صـحفيين إلى أدبـاء وشـعراء وممـثلين ومخرجين ومؤلفين

وسياسيين وعاطلين بالوراثة. وبرغم ضخامة أعداد روادها وتنوعهم فإن روحا عائلية تسود بينهم بكثير من اللطف والدماثة والأريحية. ولهذا كان صاحب المقهى يتسامح فى بعض التجاوزات النظامية الخاصة بمطرحه؛ فإذا كان الطعام والمشروب الروحى لا يقدمان إلا داخل قاعة المطعم المقفلة فلا بأس أحيانا من الخروج على هذا النظام مجاملة لبعض الرواد الدائمين الذين يصرفون كل رواتبهم فى هذه المقهى، بأن تخرج وجبة غداء مع زجاجة بيرة إلى المقهى فى الشريحة العريانة.

كنا جلوسا فى الهواء الطلق ذات عصرية نحتسى البيرة ونتكلم بانفعال حاد فى أوضاع البلد الذى فسد فيه كل شيء، رحنا نشكو من لهلبة الأسعار، ومن ندرة السلع، وضيق ذات اليد، وازدياد أعداد المتسولين والمشردين الذين يتسللون بين ممرات الترابيزات يعرضون على الزبائن عاهاتهم وبؤسهم فيتكفل ماسحو الأحذية بمطاردتهم ولكن دون جدوي. طبَّ علينا زميلنا الصحفى محمد عمران الذى التحق بمكتب جريدة الشرق الأوسط فانتعشت أحواله المادية لدرجة أنه بات قادرا -كالسياح- على تناول الغداء فى هذه المقهى مقابل مبلغ يوازى مرتبه الذى يتقاضاه من المجلة الأسبوعية القومية التى يعمل فيها أصلا.

فاجومى هو، سحب الترابيزة من أمامنا فقربها منه واحتضنها ثم طلب: إسكالوب بانيه مع سوتيه وزجاجة بيرة. وكانت الترابيزة قد صارت لصق رصيف الشارع العمومى الذى يشغى بالمارة المتصادمين فى اتجاهات متعاكسة. راح يجرع البيرة ويخطب بفجاجة عالية الصوت مهاجما الحزب الوطنى ومبدأ التوريث، يلقى بنظرة استمتاع على طبق الإسكالوب بانيه حيث تمددت رقعة كبيرة من اللحم المشوى تملأ الطبق

يتصاعد منها دخان شهي، أمسك بالشوكة والسكين لكنه تمهل حتى يبرد اللحم الساخن قليلا، ثم واصل خطبته. عندئذ كانت الفتاة المتسولة ذات السنوات العشر قد اندست ثم حاذت الترابيزة، وبكل هدوء أعصاب أمسكت بقطعة اللحم، وفى لمح البصر غيبتها فى جوفها وهى ماشية كأن شيئا لم يكن، تزفها ضحكاتنا الصاعقة التى وضح أنها كانت مزيجا من السخرية والتأييد.

نصفُ أصبعِ كفتَة

والله يا أمى ما أنا عارفة آخرتها مع هذا الولد المفعوص الذى يفضحنا بين الجيران بعياطه على الفاضي. ولد هوّالي، خلاكِ قمت من نومك مفزوعة تظنين من علو صراخه أننى أذبحه، ليتنى أقدر والله لفعلت، بوزه نحس، جاءنا على آخر الزمن بعد أن طفحنا الدم من كثرة العيال، ليس يكفيه أن أباه خالى شغل من يوم ما انكسرت رجله فى عمارة الحاج منصور وهم يصبون السقف، ثلاثة أشهر ما دخل بيتنا مليم أحمر يوحد ربه، ويجيء بسلامته يسوق الدلع، يظن أنه آخر العنقود، يظن أن البال رايق والقلب فايق للدلع، دلع الفقارة يفقع المرارة، ولو عرف بسلامته أننى وأبوه أصبحنا نتمنى شوطة تأخذهم جميعا مثل فرة الفراخ لسكت، ومن يعرف؟ ربما هو يبكى على الدوام لأنه يعرف أننا لا نعرف كيف نطفش منهم ولو بالموت. قطيعة تقطع الخلف وسنينه السودة.

يا أمى اتركيه ينفلق، سيتعب قلبك من غير نتيجة، خسارة فيه الدلع.. اتركيه وعودى إلى عشتك وأكملى صلاتك أو نامي..

يا أمي.. صلى على النبي.. سأقول لك لماذا هب من نومه فى عز الليل مرعوبا يصوت ويصرخ.. لولا ربنا ستر لقتل أخاه النائم لصقه..

الحكاية وما فيها أن المقاول- كتر خيره- فات علينا بعد صلاة العشاء يطمئن على رجل محمد المجبسة. أنت ساعتها كنت فى سابع نومة وعشتك مطفأة. إزيك يا محمد أهلا يا حاج، حتفكّ الجبس إمتى إن شاء الله؟ بعد يومين ثلاثة بإذن واحد أحد. لف المقاول يده فى ورقة بعشرة جنيهات وغمز بها محمد وهو يقوم، محمد صعبت عليه نفسه: عشرة جنيه وأنا عطلان ثلاثة أشهر من إصابة فى شغلك؟! وبكى فبكيت لحاله والخوف يفرم قلبى من أن تطلع فى دماغ محمد ويرفض أن يمد يده ليأخذ الورقة أم عشرة ونحن كما تعرفين نكمل عشاءنا نوماً. لكن المسكين مد يده الكسيرة وأخذها. كان فى يد المقاول حين جاء لفة ورق من ورق المحلات تفوح منها رائحة لحم مشوى صحت العيال من نومهم فتربعوا يبصبصون للفة الورق ولعابهم يسيل على شفاههم، ولولا أنها كانت تحت فخذ المقاول لخطفوها وجروا بها إلى الخلاء بفضيحة تلم علينا عزبة القرود. فلما وقف المقاول ترك اللفة مكانها وقال لمحمد: أكلة كباب معتبرة ترمّ عضمك، ومشي، ففى الحال رفع محمد عصاه ضاربا بها الأرض فى وجه العيال الذين هبوا واقفين للهجوم على اللفة، كانوا مدركين جيدا أن عصاه لا تعرف التهويش بل إنها تتلكك لتضربهم حتى لا يأكلوا بعضهم بعضا. محمد فتح اللفة، بالفهلوة فهمنا أن المقاول دخل محل كباب لم يعرفه من قبل فى نواحينا وطلب كيلو كباب ليأكله فلما جاءه الكباب لم يعجبه فقرف منه فلفه مع الخبز والطحينة والسلاطة -من غيظه- فى هذه الورقة ولما رأى نفسه قريبا منا حود علينا بهذا الجميل. قطعة لحم واحدة فى حجم رأس الفأر طوحها محمد فى حنكه ليستطعم فحسب، وثلاثة أصابع كبيرة وتخينة من الكفتة، نصّصتها،

وزعت على كل عيل نصف أصبع واشتركت أنا ومحمد فى نصف أصبع. فى غمضة عين أكل العيال أنصبتهم إلا هذا الولد المنحوس بوز الإخص الذى ينوى أن يجيء لنا بالفقر أكثر مما نحن فيه، استخسر الولد أكلها، قعد يبحلق فيها وكل حين يلمسها بأسنانه ثم يبقيها بين قبضتيه، كان يريد أن يصدق أنه يأكل لحما، شخط فيه أبوه مهددا بأخذها منه فطوحها فى حنكه ومضغها ببطء حتى بلعها ونام، ونمنا كلنا وغمّضنا شريط لمبة الجاز، وقرب الفجر فى النومة الحلوة نزلت الصرخة فوقنا كسكينة اندبت فى قلوبنا فقمنا فزعين، رفعنا شريط اللمبة والولد الملعون مستمر فى الصراخ والجعير وقابض بأظافره على رقبة أخيه الذى راح يصرخ هو الآخر ويفرفر بين قبضتى أخيه. فين وفين على ما فهمنا، لقد رأى الولد الملعون فى المنام أن أخاه اختطف منه نصف أصبع الكفتة فركبه الجنون، بقى حتى مطلع الشمس يبكى وينوح غير مصدق أنه أكله بالفعل واستقر فى جوفه. شفتى الهم الذى أنا فيه يا أمى؟!

ميراثُ الشيطان

صديقى وزميل دراستى الجامعية هادى عبد العزيز صعيدى من أسيوط، ما إن حصل على بْكالريوس التجارة حتى عاد إلى أهله ليسهم فى إدارة محلات أبيه وهى من أكبر محلات المانيفاتورة في الصعيد كله ربما. كان منذ سنوات بعيدة قد حكى لى طرفة صعيدية ضحكت منها وإن كانت قد أرهبتني، ضحكت لتصورى أن صديقى هادي- وهو خفيف الظل حقا- قد ألَّف تلك الطرفة من خياله بهدف إثارتى إذ إنه يعرف أننى مولع بكل غريب ومثير، وارتهبت لعدم قدرتى على تصور إمكانية حدوثها فى الواقع كما زعم صديقى هادي. ولم يكن يدور بخلدى على الإطلاق أن ما حكاه واقع قائم بالفعل إلى اليوم فى بعض بلدان الصعيد.

يومها كان متأثرا جدا، وحزينا إلى حد الغضب. سألته عن السبب فقال إن أهل بلدتهم باتوا يهزأون بأبيه وبالعائلة كلها من يوم جناز أمه إلى اليوم رغم مرور خمس سنوات على موتها وأن أباه من فرط شعوره بالعار لم يعد يخرج من البيت إلا للضرورة القصوى، لدرجة أن شقيق هادى الأصغر أرسل إليه اليوم خطابا من البلد يستحثه على الإسراع فى المجيء ليعاونه فى مباشرة العمل بالمحل.قلت: لماذا العار؟! قال هادي:

إن أهل الصعيد من عاداتهم العريقة استرداد جثمان ابنتهم المتزوجة لتدفن في مقابر عائلتها حتى وإن كانت متزوجة منذ مائة عام وأنجبت مائة رجل. هم بالطبع يعرفون أن زوج ابنتهم المتوفاة وعيالها سوف يتصدون لهم ويتمسكون بجثمان أمهم ويصرون على دفنه في مقابر عائلة الزوج إذ إن هذا من طبائع الأمور في نظرهم، ولكن من طبائع الأمور أيضا في نظر أهل الزوجة أن يتم دفنها في مقابر أهلها على أساس أنها لحمهم رد إليهم بعد طول اغتراب. كل من الطرفين يدبر للاستيلاء على الجثمان بمجرد صعود الروح إلى باريها: يبدأ التفاهم أولا بالمفاوضات الودية، وهي في العادة تمضي دائما إلى طريق مسدود فإن كانت عائلة الزوجة مماثلة لعائلة الزوج في القوة والعناد قامت المعركة حامية الوطيس والغالب فيها يحسم الأمر لصالحه. فإن كانت عائلة الزوج ضعيفة فإنها تدبر لدفن الجثمان في السر بحيل جهنمية وقد تصل أحيانا إلى حد الكوميديا السوداء، أما إن كانت عائلة الزوجة هي الأضعف فإنها تدبر لسرقة الجثمان أو خطفه بأي شكل!!..

كان هادي عبد العزيز ثائرا على هذه العادة ولا يعرف من أي ميراث حضاري بعيد آلت إليهم. أنا كذلك لا أعرف ولم أصدق لكنني وافقت هادي وشجعته على أن يعمل بقدر ما يستطيع على محاولة إبطال هذه العادة بين أهله باعتباره قد تعلم تعليما عاليا ويا حبذا لو نجح في حشد الكثيرين من صحابه المتنورين لإقناع الناس بالعدول عن بهدلة الجثمان أيا ما كانت الذرائع..

وقد مر ما يقرب من أربعين عاما توطدت خلالها صلتي بهادي عبد العزيز، كل منا حضر فرح الآخر، كل منا جامل الآخر في أعياد ميلاد

ومناسبات عديدة بهدايا ولمسات ومفاجآت سارة كثيرة، استضفته في القاهرة واستضافني في أسيوط مرات لا حصر لها، تبادلنا الاصطياف في عشة يملكها في سيدى كرير، الرسائل بين أولادى وأولاده لا تنقطع على الإنترنت وعبر الهاتف المحمول في اللحظات العابرة. وكنت قد نسيت أمر تلك الطرفة القديمة إلا أنها كانت تطوف بخيالى كلما شاركت في تشييع جناز في أى مكان حيث تنتابني رعشة ويصيبني ارتباك من شدة الحرج فأركز كل طاقتي وانتباهي لمنع نفسي من الاستسلام للضحك. وفي كل مرة أبيت النية على أن أسأل صديقي هادى عبد العزيز عن مصير تلك العادة وهل نجح بمعاونة أصدقائه المتعلمين في إقناع أهاليهم الكرام بالعدول عنها؟ أم أنها كانت مجرد نكتة؟ لكنني ما إن ألتقيه حتى تستغرقنا حرارة الشوق في التعبير عن نفسها بأشكال سريعة متلاحقة..

وذات ليلة شعرت بشيء من التوتر الحزين الغامض ينتشر على وجوه أولادى وحركاتهم، يتهامسون في شحوب، يعودون إلى شاشة الكمبيوتر يعبثون بالأزرار، يقرأون كتابات تنبثق على الشاشة.. أخيرا أبلغوني أن رسائل أصدقائهم أبناء عمهم هادى أبلغتهم أن أمهم دخلت المستشفى لإجراء جراحة في البنكرياس المصاب بالمرض الخبيث. فمن صبيحة ربنا شددت الرحال إلى أسيوط، وصلتها عقب صلاة العصر..كان الجناز يتأهب للتحرك من أمام فيلا صديقي هادي؛ لقد ماتت زوجه إذن؟.. في حديقة الفيلا عدد هائل من رجال يتعاركون بصوت عال، يتبادلون التهديد والأيمانات الغليظة وفي داخل الفيلا عويل وصراخ ملتاع..

يا له من منظر رهيب: ظهر النعش محمولا على أكتاف إخوة هادي، يحيطه رجال يحملون البنادق. عجايب: هادى نفسه يظهر حاملا

مـدفعا رشاشـا وخـريطة الذخيرة. أمر بإيقاف النعش، وقف أمامه، صرخ فـيمن يـتجمعون فـى الحديقة :«كلمة واحدة لن أكررها! قسما بجلال الله لأقـتلن المـئات مـنكم إن اقـترب أحـدكم مـن هذا النعش! هذه زوجتى وأم عـيالى أحببـتها أربعـين عامـا صرنا خلالها جسداً واحدا هى الآن أخذت نـصفه ولـسوف أذهـب إليها بالنصف الآخر عما قريب! هذا لحمى ولا بد أن أدفـن معــه ولـيكن ذلـك الآن لو أقمتم المذبحـة» ثم تمهل قليلا ينظر فى الوجـوه بتحفـز، ثـم هـتف:«ارفـع يا ولد»، ومضى هو يتقدم الموكب ويده علـى الـزناد. وقد ذهل الخارجون من الحديقة وغمغموا وبرطموا لكنهـم ما لبـثوا حتـى انـضموا للمـوكب منكـسى الـرءوس كالمقهـورين إلا أن أحدهم توقف وانفجر باكيا فتوقف البعض لمواساته فشوح فى وجوههم لكى يتبرأ مـنهم، ثـم صـرخ فـيهم: نـسوان! نـسوان! ثـم بـصق علـى الأرض ومضى مهرولا فى اتجاه البلدة وهم من ورائه يهتفون بـه أن يخزى الشيطان.

المنطقة الوعرة

فاجأتنى امرأتى بأنها حامل فى شهرها الثالث فكانت النكتة حراقة جدا، فأنا تجاوزت الستين من العمر وهى تجاوزت سن الخمسين، والحياة صعبة، والأنكت أن ابنتى هى الأخرى كانت حاملا قبل أمها. انتابتنا هستيريا الضحك المؤلم ونحن نطرق باب الطبيب الذى دلنا عليه أولاد الحلال فى همس مرعوش بأنه الوحيد فى القاهرة كلها يقبل القيام بإجراء عمليات الإجهاض سرا فى عيادته فى وسط المدينة نظير مبلغ ثقيل يجب أن ندفعه ونحن نقول سبحان الله والحمد لله.

الضحك الذى كان مؤلما صار مبهجا بمجرد رؤيتى وجه الطبيب وقد أدهشنى أننى لم أتعرف عليه من اسمه بل لم يخطر ببالى أنه هو برغم أننى قرأت اللافتة فوق شرفة عيادته فى الشارع العمومى مئات المرات دون أن أربط بينه وبين بلدياتى وزميل دراستى الثانوية وشريكى فى المسكن فى مدينة دمنهور طوال خمس سنوات: مصطفى السعيد جابر..

كل دلائل الرجولة- حسب فهمنا آنذاك- كانت أوسمة على صدره. كنا أربعة من بلدة واحدة فى سنة دراسية واحدة فى مدرسة دمنهور

الثانوية نسكن معا فى غرفة واحدة فوق سطح بيت عتيق فى شارع السوسي. كان -مثلما هو الآن- طويلا لكنه كان ممتلئ الجسم، يتميز بشارب كثيف أشقر جميل على وجه وسيم حاد الملامح مزموم الشفتين، وشعر غزير ممدود على الجبين فى تكويرة شكرى سرحان الشهيرة؛ جسم رياضي، صدر عريض ممدود، خصر ناحل عند الحزام يعطى نصفه الأعلى شكل الكأس، ساعدان مفتولان فى حبال مضفورة من العضلات، مشية رجولية منضبطة، سلمنا له نحن الثلاثة الزملاء بزعامة الفتوة، بإيحاء منا صار زعيما على جميع التلاميذ الوافدين من القرى. هو أيضا بات واثقا من نفسه إلى حد اللامبالاة التى عرف هو كيف يرسمها بإتقان. كان بارعا فى لفت نظر الفتيات إليه بحركات أو نظرات تبدو عفوية حتى إذا ما ضمن أن هذه البنت أو تلك قد بدأت تهتم به- على الأقل لتعرف ماذا هو وماذا يريد منها- انشغل عنها بحرفنة شبه شريرة كأن كل همه فى الحياة أن يثبت لها، وبشكل عفوى أيضا، أنه لا شيء يشغله فى الحياة سوى الجد والاجتهاد ليبقى دائما متفوقا فى الدرجات فى الألعاب الرياضية فى جمعيات الخطابة والتمثيل وفى تحقيق مراكز متقدمة فى النجاح آخر العام، أحيط بهالة أسطورية تنسج حوله عشرات الحكايات عن غرامياته النشطة مع فتيات الثانوية والزراعية والتجارية وحتى الابتدائية وكلما خمدت هذه الأساطير يغذيها بمناظر تخدمه فيها الظروف، كأن يتدخل فى لحظة مناسبة ليدفع العدوان عن فتاة بعينها، أو تقديم العون لأخرى من قبيل واجب النخوة والشهامة، أو يكون واقفا بين رهط من الزملاء فتجيء فتاة لتشكره على خدمة قدمها لها فيتمهل فى رد الشكر حتى يراه الكثير من الزملاء ليدهشهم بـ«ثقله» واعتزازه

بكبريائه الرجولي. وبرغم يقينى بأنه لم ير امرأة عارية فى حياته فإننى كنت أجاريه بصمت التواطؤ إذا هو أراد أن يوحى إلينا فى عبارات غامضة بأنه اليوم على موعد شديد الأهمية يقتضى حلاقة ذقن وكى قميص.

لا أنسى- ولا أظنه نسي- ذلك الحدث الذى وقع لنا ذات يوم بعيد: كانت المدينة قد فرضت علينا أساليب حياتها الجائرة، علمتنا أن نذهب إلى سوق الخضار فنجوس فيه حتى نتوقف أمام رهط من نساء يجلسن على الأرض وليس من بضاعة أمامهن، فهن البضاعة، إنهن غسالات وشغالات يقمن بغسل الثياب وتنظيف البيوت بالأجر، لا حياء عندهن فى الاتفاق مع التلاميذ المغتربين على مبدأ: الشرط قبل الحرث، تطلب الواحدة منهن معرفة عملها بالضبط: هل هى مطلوبة للغسيل فحسب أم للغسيل والمكوى معا؟.. ما ألذ أن نعرف مغزى المكوى بعد الغسيل، عندئذ ما أسهل أن يتنازل الواحد منا عن قرشين ونصف من مصروفه الشهرى ليصير أجر الغسالة عشرة قروش مقفولة. يومها جاءت معنا واحدة إلى غرفتنا فوق السطح. المرأة كانت عجفاء دميمة رثة الثياب حافية القدمين فى حوالى الأربعين من عمرها، مع ذلك انتعشت أعطافنا لذة وإثارة وغبطة. كنا على يقين بأن زميلنا الدون جوان الفحل سيتعفف عن هذا الصيد الرخيص النتن فإذا به يكون أول المتلهفين: تقدم منها بثقة راسخة كزعيم على أرضه بين جمهوره ومثلما يعطف الزعماء بملاطفة الضعاف من رعاياهم سحبها من ذراعها إلى الغرفة، مشت معه على مضض ممتعضة.. بعد ساعة كاملة من الهبد والرزع والزغد والصوات اضطررنا لفتح الباب عليهما لنفاجأ بها فى كامل ثيابها ترفض رفضا قاطعا أن يقترب منها..

لماذا؟.. هى نفسها لا تعرف.. يا ست يهديكى يرضيكى لا فائدة.. إذن فما مصير الاتفاق؟.. قالت ببساطة: أنتم نعم هو لا! لماذا؟! تقول إنها لا تعرف لكن هكذا تربست فى دماغها. دخلنا عليها ثلاثتنا واحدا بعد الآخر وهى تستقبلنا وتودعنا بترحاب صاخب واحتفالية متهدجة باللذة والشبق. كان صاحبنا يرقب ذلك بوجه تتقلب عليه الألوان، يتشبث بآخر أذيال الكبرياء المهيض يتوقع أن تعفو عنه وتدعوه إليها بمزاجها، لكنها لم تفعل، إنما قامت بسرعة لتمرش قطع الملابس التى تركتها طويلا فى حلة الغلية..

شغلنا هذا اللغز لسنوات طويلة دون أن نفهم السبب الحقيقى وراء تلك «القفلة» غير المفهومة، لكن ما شغلنا حقا وألهانا عن تفسير اللغز هو أن زميلنا الدون جوان قد انطفأ في وجهه شيء ما، انكسر فى عينيه بريق كان لامعا لماحا مشاغبا، قل اهتمامه بمظهره، أصبح كلما شاهد فتاة تجهم وجهه وحول بصره بعيدا.

ها هو ذا الآن قد أصبح شخصا آخر تماما، وجها ينضح بالمرح والسخرية فى صوت مشبع بالدفء والحكمة والتواضع. لم تستغرق العملية أكثر من دقائق معدودة مع أنها- كما لمحت لى ممرضته- كانت صعبة نظرا لاستقرار الجنين. وفيما كانت المرضة تعنى بها فى الغرفة المجاورة جاء هو ليشرب معى فنجان القهوة.. لم أذكره بما كان من حدثٍ أيام الصبا، ولكن بدا عليه كأننى قد حكيت كل شيء، إذ قال فجأة كأنه يعلق على ما يفترض أننى حكيته أو ذكّرته به:

«أردت أن أفهم لغز المرأة! أن أدخل إليها من الباب السفلى الذى تتمركز فيه أسرارها صممت على تأجيل الزواج إلى أن أدرسها وأفهمها

جـيدا! نجحـت فـى الدراسة وفى حياتى العملية لكننى لم أنجح بعد فى فهم أى شيء! فكل يوم أفاجأ بسر جديد يكمن فى هذه المنطقة الوعرة!».

ثـم اصـطدمت عيـناه بعـيني، فانفجرنا فى ضحك هستيرى أعادنا – حقا– إلى بهجة ذلك الزمان.

فقدانُ الرُّشد

بـوجـه مكْفهـر التقانـى صـديقى الـورع، فـصودرت بشاشتى من فرط الـتوجس ممـا يكـون قـد ألم بـصديقى فضرب أجمل ما فيه: المرح التلقائى المتدفق على الدوام فى ضحك بشوش يعكس صفاء قلبه وعمق ورعه لدرجة أنـه- وزوجـه الحاجـة مكـارم- يتـبادلان الحـج والعمـرة عاما بعـد عـام لاختـصار الـنفقات على فرد واحد. فتشنا فى وسط القاهرة عن مكان يصلح لاسـتدعاء قـدر ولو ضئيل جدا من الهدوء والحميمية المسروقين من حياتنا مـنذ مـا يقـرب مـن أربعـين عاما، لجأنا إلى ركن قصى من مقهى بلدى فى ممر بهلر. أربعـة حجارة من الشيشة النادية وفنجان قهوة إلى أن تشحمت ملامـح وجهـه وراحت تتحرك بسلاسة دون أن تتصادم ببعضها مثلما كان مـنذ بـرهة وجيـزة ممـا وشـى بأنـه كـان بالفعـل فـى حالـة غضب وحنق شـديدين، وإذ رق الـضباب فـى عينـيه سـألته: مـا بـك يا رجل؟ فزفر من أعمـاق صـدره ثـم قال: فضيلة المفتى يا سيدى سامحه الله وإيانا! قلت: ما لـك بفـضيلتـه؟ قال : لقد بات شبحه يحقق حضورا قويا فى بيتي! صحيح أننـى والحاجـة مكارم وعيالى كنا أسعد الخلق بزياراته الأسبوعية لبيوتنا جمـيعا عـبر شاشـة بـرنامج البـيت بيـتك، ولفـرط سماحته وغزارة علمه

وأريحيته كنا نتداخل مع فضيلته على الهواء بأسئلة من جانبى تارة ومن جانب الحاجة مكارم تارة أخرى ومن جانب عيالى تارة ثالثة! كنا نجتهد بل نتفنن فى اختراع مشاكل فقهية وأسئلة عويصة حول الحياة قديمها وجديدها لكى نستمتع بإجاباته الفياضة النيرة! إن مجرد ظهور أصواتنا على الهواء مقرونة بصوته الكريم جعله كأنه قريبنا بل من عائلتنا! قلت لصديقي: هذا شيء طيب فما البأس فى ذلك؟ وقال : لا بأس طبعا ولكن الحضور الدائم القوى لفضيلته جعلنا فى حالة يقظة فتووية مرهفة تجاه كل أمر من أمور الحياة بعامة والفروض الدينية بخاصة! بل أصبحنا نتشكك فى كثير من الفتاوى القديمة الشائعة ونعيد النظر فى كثير من المقولات الدارجة والعادات والتقاليد المستقرة!..

قلت له فى ضجر: وما البأس أيضا فى هذا ؟ أم لعلك تقصد أن فضيلته بحضوره الطاغى قد شغلكم عن أمور حياتكم بما هو حلال أو حرام منها فلم يعد عندكم وقت ولا بقية من دماغ أو عزم تنفقونه فى كسب أقواتكم؟! إن كان الأمر هكذا فإنه بالفعل سبب يدعو للغضب ولابد من تداركه قبل أن تتحولوا إلى كائنات تبحث في: كيف تتعبد بد لا من أن تتعبد بالفعل. قال الصديق مشوحا باستنكار: ليست هذه هي المشكلة فحسب فالحمد لله على الستر، إنما المشكلة يا سيدى أن شبح فضيلة المفتى قد بات كيانا صلبا يحجز بينى وبين زوجتى فى الفراش لقد جنت الولية على كبر! كل لمسة من يدى أصبحت تحتاج إلى استشارة من فضيلة المفتى!كل فعل تشتبه فى سلامته لن يغمض لها جفن إلا إن سمعت رأى فضيلته فيه! حتى أزياء الخروج وموديلاتها وألوانها! حتى المشروبات الساخنة!.. باختصار شديد لقد أصابت البيت لوثة بمعنى الكلمة! إن لكل

شـيء طاقـة احـتمال! ومـنذ أن بـدأ أبـو هريـرة يـدس أنفه فى كل كبيرة وصـغيرة وتافهـة -ويـا للفارقة- تعطل الضمير وعم الفساد وطالت قامته! لقـد اكتـشفت الآن أن مـصر التـى سـبقت العالم كله فى التقرب إلى الخالق الأعظـم وقدمت للتاريخ وللحياة وللعالم أخلد حضارة إنسانية فى التاريخ! مـصر هـذه اتضح أنـها لم تبلغ سن الرشد بعد ولا أظن أنـها على هذا النحو سوف تبلغه فى يوم من الأيام.

الطـريف أنـه بـدأ يـتفكك شـيئا فـشيئا ويـتخفف، فكأنـه خدرنـى بانفعالـه المؤثـر ليـستدرجنى لكـى يلقـى بحملـه الثقـيل على كتفى ريثما يتـشرب أنفاسـه، فـبدورى لم أجـد مفـرا من استدراجكم لتحميلكم بعض عبئه، فاغفروا لي.

البنتُ المنسية

الموقف الصعب الذى يعيشه اليوم عبد الستار الدرش ابن خالتى تفيدة بدأ منذ حوالى أربعين عاما. كنت شاهدا على ذلك منذ البداية وإلى النهاية حيث تخرجنا معا فى كلية التجارة والتحقنا بالعمل فى إدارة شئون الأفراد ببنك مصر فى مقره المركزى ثم أنهينا الخدمة معا فى نفس العام. لا أزال أذكر نصائح خالتى تفيدة التى زودت بها عبد الستار حينما كنا مسافرين إلى أسيوط للالتحاق بالجامعة، كان صوتها رهيبا يرتعب منه عبد الستار:

– «يا ولدى لا أخاف عليك فى بلاد الغربة إلا من شيء واحد: النسوان! إياك إياك أن تلعب بعقلك ضحكة سن أو ضربة رمش من عاهرة من عاهرات المدن السائبات توقعك فى ورطة تعطلك عن الدراسة وتكدر مستقبلك!.. اقفل باب المرأة فى رأسك بالضبة والمفتاح! ولما تتخرج وتتوظف نبحث لك عن بنت الحلال المحترمة!».

لو كانت النصائح مجرد كلام من قبيل التحذير لنسيه عبد الستار بعد سماعه مباشرة، لكن خالتى تفيدة عندها فى دماغها دفتر متخم بالحكايات الدرامية المأساوية يشيب لهولها الأطفال– اتضح لى بعد ذلك

أنهـا مـن حكايـات ألـف لـيلة ولـيلة- تحكـى عـن كـيد النساء وقدراتهن الخارقـة فـى إيقـاع الأذى بالـرجال وفـى الـتحايل علـى القـيود لارتكاب الخـيانة. العجـيب العجـيب أن خالتــى تفـيدة وهــى امرأة تقف ضد المرأة وتحـذر ابـنها من غدرها باعتبارها مخلوقا غدارا بالسليقة لا يؤمن جانبه ومـن ثـم فالـبعد عـنه غنـيمة، فهـناك يـا ولـدى نساء تسببن فى الخراب والـدمار، وشـبان فقـدوا مـستقبلهم الزاهـر مـن أجـل فتاة ساهية ناعمة، وأثرياء بددوا كل ثرواتهم وأكملوا بقايا أعمارهم خلف جدران السجون من أجـل عاهـرات أوقعن بهم فى شباكهن.. إلخ إلخ.. الأعجب من العجب أن عـبد الستار ابن خالتى تأثر بكلام أمه بقدر ما تأثر باللبن الذى رضعه من ثدييها، باتت علاقته بالمرأة شبه منعدمة تماما، حتى زميلاته فى الإدارة كـان يـتحفظ فـى معاملتهن، يكاد يغسل يديه إذا ما اضطر لمصافحة واحدة منهن.

إلا أنه كان لا بد أن يتزوج، ليس بدافع الغريزة والاحتياج الإنسانى بـل خـضوعا لـرغبة أمـه خالتــى تفـيدة نفـسها. وهكـذا، وعلـى الطـريقة التقلـيدية العتيقة تزوج واحدة من عائلة كبيرة من قريته، غير عاملة وإن كانـت مـتعلمة تعلـيما متوسـطا، تفـرغت لخدمـته بـإخلاص، مع ذلك لم يظهـر عليه أى ظل من الابتهاج بالزواج، بل على العكس ظهر عليه القلق والـتوجس مـن خيانـة المرأة وغدرها. وقد عاجلته زوجه بالحمل فلم يظهر علـيه الفـرح، لكـن الفرح الحقيقى ظهر عليه حينما تعسرت الولادة وسقط الجـنين واتضح أنه كان أنثي، وتكرر الفرح مرة أخرى مخلوطا بشعور من المـرارة حيـنما سـقط الجـنين للمـرة الثانـية واتضح أنـه كان أنثى، ثم جاء الحمـل الـثالث وكان ناجحا حتى النهاية إلا أن المولود كان أنثى!..عندئذ

تكدر كدراً عظيما، قام بينه وبين زوجه حاجز ضبابي غامض صبغ حياتهما الزوجية بالتعاسة..

نشطت أمه من جديد- خالتي تفيدة ما تتوصاش- فأقنعته بأن هذه الزوجة في رحمها عنقود من الإناث لن ينتهي إلا بالطلاق. كان على قناعة تامة بما سمع، فطلق زوجه بالمعروف، سافرت إلى أهلها بكل حقوقها وزيادة، التزم بالإنفاق على طفلته المبلغ المالي المخصص لها، كان يقتطع من راتبه ويودع باسمها في البنك شهريا، نسي أمرها رغم أنه من حين لآخر كان يفاجأ بأنه مطلوب منه زيادة النفقة تمشيا مع تطور الحياة، حتى بعد أن تزوجت طليقته وتركت ابنته في رعاية أمها، لم يزعجه ذلك لأنه كان قد تزوج هو الآخر للمرة الثانية من إحدى زميلاتنا في البنك سرعان ما أنجبت له ولدين ذكرين: تامر وفيصل، باتا قرة عينه، أنفق عليهما كل ما جمعه في حياته من نقود. تخرج تامر في كلية التجارة وتخرج فيصل في كلية الحقوق، فيما كان هو قد أصبح مديرا لشئون العاملين في البنك فاستطاع إلحاقهما بالبنك في وظيفتين: تامر في إدارة المشتريات وفيصل في إدارة الشئون القانونية، في نفس الوقت كانت أمهما قد توفيت بالتهاب الكبد الوبائي الذي أصبح ينوب عن إسرائيل وأمريكا في إبادة الشعب المصري.. أصبح التهاب الكبد الوبائي والفشل الكلوي قوتان عظميان في مصر، زوج عبد الستار تموت بالكبد الوبائي وعبد الستار يصاب بالفشل الكلوي وعجزت مكافأة نهاية الخدمة عن إيقاف استشراء الفشل وبات معاشه الضئيل يكفيه بالكاد لنفقات غسيل الدم ثلاث مرات في الأسبوع، أما الأكل

والـشرب فيكفـيه الفتات المتبقى من ولديه الموظفين والمقيمين معه فى نفس الشقة..

بـدأ الـولدان تامـر وفيصل يختلفان على حيازة الشقة، كلاهما يتآمر ويدبـر لاقتناصـها لكـى يتـزوج فـيها، الخـلاف بيـنهما كاد يصل إلى حد القـتال لـولا أن الولد الصغير فيصل كان أعقل من تامر فضلا عن أنـه الأذكى والأنـشط والأغنـى ماديا بحكم شطارتـه فى جلب ملابس مستوردة وأدوات كهـربائية ومحـركات سيارات مـستعملة مـن المنطقة الحرة فى بورسعيد وبيعها للزملاء بمكاسب طائلة. قام بتثمين الشقة، خير أخاه بين أن يبيع أو يـشتري، بـاع تامـر نـصيبه واشـترى شـقة بالتقـسيط فـى إحـدى المدن الجديـدة، وقـام فيـصل بترمـيم الـشقة القديمـة وتعميرهـا بـزوجة قـوية الشخـصية أنـوفة طـويلة اللـسان تقـسو على الأب عبد الستار وتشمئز منه بوضـوح. قـرر فيـصل أن يلحـق أبـاه ببـيت المسنين على نفقتـه ليخلص من وجع الدماغ.

يـوم كـان عـبد الستار يجمع أغراضه للرحيل إلى بيت المسنين فوجئ بـسيدة علـى درجـة عالـية مـن الجمـال والمهابـة. وسط الدهشة اتضح أنـها ابنـتـه وردة التى أهملها ونسيها خمسة وعشرين عاما، تخرجت فى كلية طب المنصورة وعملت معيدة بها، جاءت بخطيبـها الصيدلى ليخطبها منه، فـى دقائـق معـدودة ألـمت بتفاصيل الموقف، قال الصيدلى إنـه يملك فيلا من ثلاثة طوابق فيا حبذا لو انتقل عبد الستار- بك- ليعيش معـهما فى واحد مـن هـذه الطوابـق لـيجلب لهمـا الونس والخير والبركة وفى نفس الوقت يعرضانه على الوحدات المتخصصة فى جامعة المنصورة.

وفيما كان عبد الستار مضطجعا بجوارى على الكنبة الخلفية لسيارة الصيدلى الخاطب - حيث دعانى لمرافقته فى إجراء مراسم الخطوبة والزفاف - قال لى إنه يشعر أن آلام الكبد توشك أن تضمحل فى زحف آلام قلب راح يتمزق وضمير راح يتعذب من فرط ما حمله ذلك القلب- فى غفلة من هذا الضمير- من جحود ونكران.

إبليس فى بيتنا

أغيثونى يا مسلمين.. الولدان اللذان طلعت بهما من هذه الدنيا خاب أملهما يا ألف حسرة. يعلم الله أنى لست السبب، وإلا فهل أكون السبب فى خيبة أمل مصر؟ مصر كلها خاب أملها كبنت يتيمة استفرد بها اللصوص فسخمطوها وباعوها لكلاب السكك، كان الله فى عونها ويتولاها برحمته. أما أنا فالدنيا كلها تعرف أننى ربيت الولدين على الغالي، أبوهما عليه رحمة الله لم يترك لنا سوى معاشه القليل، كان موجها فى وزارة التربية والتعليم وكنت أنا معلمة فى رياض الأطفال، الحمد لله قدرنى على استلام الولدين من منتصف المرحلة الإعدادية إلى أن تخرجا فى الجامعة أحدهما فى كلية التربية الفنية والثانى فى كلية الآداب قسم التاريخ.. يا فرحتي!.. علقت على حائط بيتنا شهادتين مبروزتين، هذا كل ما حدث من تغيير فى حياتنا، بقى الولدان لا شغلة ولا مشغلة، وبقيت وأنا المنهكة المحالة على المعاش أنفق عليهما بشكل يتضاعف كل يوم حتى لم يعد عندى ما يصلح للرهن أو البيع لسداد احتياجات كل منهما: أكل وشرب وكسوة فخمة وفسحة وقراءة جرانين وفرجة على ماتشات الكرة والمسلسلات والبرامج، والخناق مع بعضهما لغير ما سبب،

واختلاس كل منهما ملابس الآخر من ورائه، وسرقة أسراره وكلها أسرار خائبة ولكنها تشعل العراك بينهما، صارا كعدوين لدودين كتب عليهما أن يعيشا معا ويناما في حجرة واحدة بدولاب ملابس واحد وسرير واحد. انهدت قواي والله يا خلق هوه وصرت أتمنى لو أنني عدمتهما معا في لحظة واحدة، ندمت والله على خلفتهما، الواحدة منا تنجب العيال كي تجد من يرحمها عند الكبر لا لكي تنفق على حصانين جامحين سافلين ينهشان لحمها، لكنني يوجعني قلبي من أجلهما، فذنبهما في رقبة بلدة استنذلت حكومتها فتنكرت لعيالها وعينت نفسها تملية في خدمة أصحاب الفلوس اللصوص. ماذا يفعل الولدان يا قلب أمهما؟ كل منهما جرب حظه في الهجرة ونجح في الوصول إلى بلاد الحرية والفرص على الشاطئ البعيد للبحر ولكن لسوء بختهما وبختي أعادتهما شرطة الخواجات إلى شرطتنا، مرة بعد مرة، في كل مرة أخسر فيها مصاغا وأتحمل ديونا وأخيرا وقعا في قرابيزي، وعدت إلى الصراخ ولطم الخدود للفصل بينهما حتى يئس الجيران من دوشتنا وقاطعونا. وبالأمس كان الولد الكبير حسام يتفرج على برنامج في قناة دريم يتحدث مذيعه وضيوفه مع مصريين هاجروا إلى إسرائيل وتزوجوا من إسرائيليات وأنجبوا منهن وحصلوا على الجنسية الإسرائيلية ويعيشون في راحة بال يشتغلون ويكسبون ويقولون آراءهم بحرية ويمكن للواحد منهم أن يرشح نفسه ويرتقي مع الانتخابات حتى يصبح رئيسا للوزراء. وكان حسام يتابع الحوار بإعجاب ويصفق لهؤلاء المصريين الذين وصفهم بالجدعان، أما الولد الثاني صلاح خريج قسم التاريخ فكان مندمجا في قراءة الجرنان مثل كرة من النحاس الأحمر بجنزرة من الكدر الطافح بالشر، وكانت

الصفحة التى يقرأ فيها ملآنة بالمانشتات الكبيرة عن ذلك المدعو بالشيخ سيد إمام الذى يقال إنه تراجع عن الأفكار المتطرفة التى سبق أن أفتى بها لجماعته الإسلامية وأخذها عنه تنظيم القاعدة وما إلى ذلك من كلام أقرأه ولا أفهمه. وفجأة كور صلاح الصحيفة بغيظ ورماها وصاح فينا كأننا المسئولون عما هو منشور فيها، قال: «شيوخ آخر زمن صرنا نخلدهم ونشغل الدنيا بهم مع أنهم استباحوا دم المسلمين وأموالهم ونصبوا من أنفسهم أمراء ووكلاء ينوبون عن الله سبحانه وتعالى فى تنفيذ ما لا يرضاه لنا فينا! أليست هذه بلد ملعونة مريضة إن لم تجد من يعذبها اخترعته أو عذبت نفسها بنفسها؟». عندئذ قال له حسام بسخرية واستخفاف: «اطمئن! بعد مؤتمر أنابوليس يتم أسرلة المنطقة العربية فلا تجد أثرا لمثل هذه الظواهر!» ثم قامت القيامة، أطبق صلاح فى خناق أخيه الأكبر فأهانه فما كان من حسام إلا أن طواه بعنف وانهال عليه ضربا بوحشية أذهلتني، ولا أحد من الجيران يغيثنى كل منهما ترك فى الآخر جروحا دامية سوف أموت قبل أن يتشرب أحدهما أنفاسه ليفتك بأخيه بتحريض من إبليس اللعين.

معاش أم حنفي

محسوبكم من غير مؤاخذة سواق تاكسي، على باب الله يعني، وليتها عربة عفية بحالتها، إنما هي حتة ماركة «لادا» اشتريتها نصف عمر وصرفت عليها الجلد والسقط وآهي ماشية. من حي البساتين إلى حي المعادى فحلوان تلك هي خريطتي اليومية، لا أقترب من زحام القاهرة خوفا على موتور العربة، المهم أن ربنا طرح البركة فيها لدرجة أنها تصرف على عائلتين: أنا وعيالى، وأبى وإخوتى الصغار. لهذا أنا أشكر الله وأزكى عن العربة بمشاوير مجانية في سبيل مرضاة الله لمن لا يقدرون على المشى وعلى الدفع معا.

من هؤلاء الذين يتمتعون بزكاة عربتى خالتى أم حنفى جارتنا فى مساكن فايدة كامل. الولية عجوزة كركوبة، خمسة وثمانون عاما جعلوا وجهها أشبه بماكيت مجسم لمدينة كبيرة متساوية الارتفاعات متعددة الخطوط الدالة على شوارع وحارات. مقطوعة من شجرة من أصل صعيدي، كانت تشتغل ممرضة فى مستشفى الجلاء وكانت خبيرة بعمليات التوليد وجميع أمراض النساء وكانت تكسب الكثير لكنها أنفقت كل ما كسبته على ثلاث زيجات فاشلات، بين الواحدة والأخرى حوالى عشرين عاما،

وفى كل زيجة كانت دائما هى الحيطة المايلة، هى التى تنفق وتدارى وتدلع نظرا لرغبتها الصادقة فى حياة زوجية مستقرة إلا أنها، ويا للعجب، وهى الخبيرة بأمراض النساء عجزت عن علاج نفسها من العقم، كانت جميلة كما تشهد صورها زمن الشباب، وذات قوام فارع فتان، وذات شخصية شديدة الطيبة والانكسار لحرمانها من الولد. آخر زيجة - أتذكر فى طشاش طفولتي- نصب عليها زوجها واستولى على مصاغها ودفتر توفيرها كله حيث أوهمها بمشروع تجارى فإذا به يتورط فى صفقة مخدرات يفقد فيها حياته فى مواجهة مسلحة مع حرس الحدود.

بقيت الولية الغلبانة وحيدة لا تملك من حطام الدنيا سوى شقة مساحتها خمسون مترا من حجرة وعفشة مياه، باتت عاجزة عن الكسب، بالكاد تخدم نفسها ليس لها مصدر إنفاق سوى معاشها الحكومى التافه: مائة وستة وثلاثون جنيها وبضعة شلنات، كفر والعياذ بالله يعني، مع ذلك هى راضية، تدعبل حياتها بهذا المبلغ طوال الشهر مكتفية بالكفاف قانعة بقدرها. المصيبة أنها تتحرك بصعوبة ولولا أن الله يلهمنى فى الموعد من كل شهر فأفوت عليها لأحملها فوق ظهرى كالزكيبة نازلا بها من الطابق الرابع، أعبأها فى التاكسى أذهب بها إلى مكتب البريد وأكافح الطابور ساعتين حتى أصل بها إلى شباك الصرف الذى لا بد أن يراها شخصيا. إلى أن طلعت لنا هيئة المعاشات بمطلوع جديد وغريب أصبح يتكرر كل عام كأن الحكومة المصرية لا وظيفة لها فى الحياة إلا تعذيب الشعب المصرى باستمتاع وتلذذ. فى كل عام كان يضيع منى اليوم بأكمله بسبب هذا المطلوع التعذيبى الحكومى المصرى الإجرامى ومنذ بضعة أيام

فوجئنا به يتكرر: لم تجد الولية معاشا فى الشباك، طالبوها كالعادة أن تذهب إلى مكتب التأمينات فى حلوان لتريهم نفسها حتى يقتنعوا بأنها لا تزال على قيد الحياة فيأمروا بإعادة معاشها إلى شباك البريد، يومها كانت الولية كالفسيخة، مفرهدة من جوع وأرق وأمراض سكر وضغط وتصلب شرايين ومفاصل إضافة إلى الحر الخانق الذى تصدره الجزيرة العربية إلينا. أمرنا لله ذهبنا إلى مكتب تأمينات حلوان، حملت الولية على ظهرى ودخلت بها إلى الموظفة المختصة. بآخر ما فى أم حنفى من أنفاس تمتمت: «أنا أهه يا بنتى لسه على قيد الحياة»، ثم تهاوت على صدرى جثة هامدة بلا حياة.

رقعة لحم منقوشة بالأخضر

الولد يا حبة عين أمه خلانى فى نص هدومي.. صدق والله يا أخي من قال: هم يبكى وهم يضحك. لا أحد منكن تلومنى لأننى تبسمت والحزن يخرط فى لحم قلبى كسكين الحلاوة الطحينية.. منكن من قالت فى نفسها: الولية جاءها لطف، وأنا جاءنى اللطف حقا ولكنى كان لا بد أن أبتسم لأدارى حرجى من الضابط والحكومة، الحكومة كتر خيرها جاءتنى بجثة زوجى عبد الرحمن لحد باب الدار. آه يا أختى ماذا أقول وكيف أصف؟ هى جثة والسلام، وحوش البحر أكلت ثلاثة أرباع الجسد فى الفخدين والبطن والساقين ونتشت ونهشت من الأذنين والأنف والحنجرة والشفتين.. الله يرحمه، كان يعمل حسابا لقدر الزمان فى الغربة، كان يعرف أن البطاقة العائلية وورق إثبات الشخصية ليس يفلح فى إثبات الشخصية، يقول إن الإثباتات الورقية يمكن أن تضيع أو تذوب فى المياه فتتشرد جثة البنى آدم فى بلاد الغربة البعيدة؛ فذهب إلى الوشام فى سوق البلد جعله يكتب له اسمه وبلده بالوشم الأخضر فوق زنده اليمين، لم يكن يخطر على باله أن الجسم نفسه يمكن أن يذوب فى بطن حوت، إنما سلامة نيته خدمته وخدمتنا فى النهاية، الزند المكتوب عليه

اسمه نجا من حنك البحر، لحق به الغواصون وهو أشبه بكوز الذرة المشوى يتدلى من الكتف مشبوكا بعرق كالفتلة..

قلبي جامد تقولين؟! ماشي يا أختي، أنا فى الحقيقة ما كنت أريد أن أصدق أن عبد الرحمن قد غرق فى بحر إيطاليا وهذه هى جثته، كنت أريد أن أقتنع بأن هذه جثة واحد آخر غير عبد الرحمن لكى يبقى الأمل فى عودته زادا نتعيش عليه أنا وابنه الذى لم يكمل ست سنوات والذى سافر من أجل أن يبنى له مستقبله وكنا على استعداد للصبر حتى وإن طال غيابه العمر كله، أما أن تجيء الجثة وهى أشبه ما تكون بعفشة البهيمة الذبيحة مبرومة فى صرة كالطرد البريدى لتقطع علينا الأمل فى عودته نهائيا فاللطف جعلنى أبرك فوق الصرة أفتحها بأسنانى كالمسعورة وأصابعى تقلب فى كومة اللحم وعينى لائذة بزنده، برقعة اللحم المنقوشة بالأخضر.. صبرنى يا ربي.. والله يا أختى بمجرد ما فككت الصرة كانت هى أول شيء خزق عيني، تهت، الدنيا كلها غابت من حوالى فما عدت أرى أو أحس أو أسمع شيئا غير صوت بكاء ابنى حسن وصراخه فى دار الجيران الذين تكفلوا بحبسه حتى لا يرى المشهد. من أجله وحده أفقت لأجدهم دفنوه والمعزى حابكة على البلدة كلها.. دماغى غصبا عنه صرف كابوس الجثة، فقد ركبه كابوس جديد فتحت عليه عينى فى المعزى، إنهن نسوان من زوجات الديانة الذين استلف منهم عبد الرحمن عشرين ألف جنيه بإيصالات أمانة ليكمل أجرة السفر خمسة وثلاثين ألفا لم يكن معنا منها سوى خمسة عشر ألفا بعنا بها نصف دارنا لجارنا.. والله يا أختى من لحظتها وأنا محبوسة فى القبر بدلا من عبد الرحمن، أتعذب أشد منه؛ فالمشايخ والمفتى يقولون إن المرحوم لن ينال شرف الشهادة وهو

مديـون ولو بقرش صاغ لأى أحد، وإنى لأطلب له رحمة الشهادة ولكن من أيـن لى بمهـرها؟! يـا ربـي! قطعـة اللحـم المنقوشـة بالأخـضر لا تفـارق خاطـري، ياما ضحكنا عليها ليلة سفره، والولد يا ضنايا فرحان بضحكتنا ويطـرطق أذنيه يسمع كل كلمة نقولها، كنا نضحك لأن اسمه المنقوش على زنـده سيفـضح كذبتـه حين يدعى للطلاينة أنه ليس مصريا، هكذا اتفق مع زملائـه المسافرين بنصيحة من السمسار: إنكار مصريتهم حتى لا يرحلهم الطلايـنة. وكـان عبد الرحمن يتدرب على إنكار مصريته معى كما يتدرب الممـثل علـى دور سـيمثله؛ فأنـا أتقمـص دور الـشرطة الطليانـية وأسـأله بخشونة وقلة أدب كأنه حشرة مثلما يفعل البوليس المصرى معنا، أسأله: أنـت مـصرى يا روح امك؟ فيرد عبد الرحمن بذلة ومسكنة: أبدا أبدا والله يـا سـعادة البيه أنا عمرى ما كنت مصرى أنا عراقي. فأصرخ فيه: يا كلب يـا ابـن القحـبة أنـت مـصرى وسنرحلك! فيرد عبد الرحمن مقلدا اللهجة العراقية بإتقان: مو مصرى! مو مصري! وما كنا ندرى يا أختى أن كلامنا المـضحك انطبع فـى قلـب الـولد جـدا فزرع فيه الخوف الحقيقى من مصر والمـصرية.. أسـاس الفزع خوفنا وخوفه من الشرطة التى تمثل بالنسبة لنا الـضرب والـسحل والـسجن والقـتل وكـل ألـوان التعذيب والهوان مما نراه رؤيـة العين كل يوم ليس فى أقسام الشرطة فحسب بل فى الشوارع بل فى بـيوت الـناس.. فـى الـيوم الـتالى جاءتـنا الشرطة لتستجوبنا عن سماسرة التـسفير، إنهـم لا يعـرفون الود أبدا، لا يرحمون لا يقدرون لا يعذرون لا يـشعرون لا يفهمـون..الـولد يا حبة عين أمه شاف على وجوههم المشدودة كارثـة فقدانـه لأبيه، رآهم يعاملوننى كأننى المتهمة التى لا يجب الترفق بها، انفجر الرعب فى قلب الولد صار يرتعد ويصرخ قائلا للضابط فى ذلة

ومسكنة لم يفلح أبوه المرحوم فى تمثيلهما بهذا الشكل القاطع للقلوب:
إحنا مو مصريين! مو موصريين ! مو مضريين! أعطينى عقلك يا أختي، ربنا جعل البسمة ترخرخ حبال دماغى المشدودة قبل أن تتقطع، ولكن ها هى ذى تتقطع على مهلها.

بتاعة الحلاوة

الولـية المسكينة الغلـبانة- كـان الله فـى عونها- ليست تعرف أننى بلدياتها من قرية سلامون القماش، من ثم لا تتذكر أننى كنت من زبائنها فـى طفـولتي، فـى ذهابـى أو عودتـى من الغيط كنت أخبئ كيزان الذرة أو إحـدى البيـضات أو حـزمة مـن حـشيش الأرانـب لكـى أشترى بها نبوت الغفـير أو الكرملة والطوفى من الحلوى التى تفرشها فوق لوح تقعد به فى مـدخل الـبلد، أيامهـا كانت متزوجة من رجل أرزقى شقيان على باب الله يـشتغل يـوما ويتـبطل عشرة، إلى أن قتلته البلهارسيا ولم تكن قد أنجبت مـنه سـوى ابـنها الوحـيد صلاح. هـى من المؤكد لا تعرف أن ابنها صلاح زاملنـى في الدراسة من الإلزامية إلى الإعدادية فالثانوية وأخيرا كلية طب المنصورة. أهل بلدتنا جميعا يكنون لها فى أعماقهم كل تقدير واحترام وإن كان الكثيرون منهم يعترفون بالتقدير من تحت أضراسهم مخلوطا بلزوجة الحقـد والحـسد، بعـضهم يكاد يكفر من شدة الغيظ معترضا على تصاريف القـدر التـى تـبدو عجيـبة إذ إن أولادا لهم توفرت فى حياتهم كل أسباب الـرفاهية وجـيء لهـم بالمدرسين الخـصوصيين ومـع ذلـك لا ينجحون فى الامـتحانات وإن نجحـوا فـبغير تفـوق، فـى حين أن ابن الأرملة الحافية

الـذى يـذهب إلى المنصورة ماشيا كل يوم من بلدتـهم ولا يبيت فى المنصورة إلا شـهرا واحـدا فـى الـسنة هـو شـهر الامـتحانات فـى حجـرة مشتركة يـستأجرها مـع عـدد مـن زملائـه مـن أبـناء القـرى المجـاورة، لكنه بعد الـتحاقه بالجامعـة ظهـر نبوغه وتفوقه فأصبح يتقاضى مكافأة شهرية من إدارة الجامعـة شجعته علـى استـئجار مـسكن مـستقل فـى مساكن الطلبة مـصمما علـى مواصـلة التفوق والنبوغ، لم يعد ينـزل بلدتـه سلامون القماش إلا كـل شـهر فـى لـيلة خاطفـة يأتـنس فـيها بأمـه ثم يعود، شيئا فشيئا تـباعدت زياراتــه لأمـه، حتــى شـهور الإجـازة الـصيفية يقضيها مساعداً لبعض أساتذتنا فى عياداتهم الخاصة كنوع من التدريس العملي.

شـعرت بـزهو طفولى لأننى تعرفت عليها ومن على بعد رغم أننى لم أرهـا مـنذ أكثـر مـن عـشر سنوات، كنت أركن سيارتـى فى المركن الخاص بالجامعـة حيـنما لمحـتها قادمـة مـن بعـيد، كانــت حافـية، تلبس نفس الثوب الأسود الكالح، الأزلي، والطرحـة السوداء تتبشنق بهـا، تحمل فوق رأسـها قفـة صـغيرة تـبدو ثقيلة ومغطاة بثوب قديم، نفس الجسد النحيل والـوجه المـصوص تـرتص فـوقه تجاعـيد طولـية كأن الوجه حزمة حبال ليفية متلاصقة، مزموم الشفتين على حنك أهتم بذقن لطيفة، لونـه الطينى يـضمر بـياض بـشرة قـد تخفّت لتظهر بوضوح فى بشرة وجه ابنـها صلاح الأبيض كالخواجات.

كانــت تمـشى ناظـرة فـى الأرض بخطـو بطـيء ولامـبالاة أرغمـت الـسيارات علـى انـتظارها حتـى تعـبر إلى رصـيف الجامعـة بكل ارتياح. عندئذ كنت قد تركت سيارتى فى عهدة المنادى واقتربت من باب الجامعة فـى اللحظـة التى كانت أم صلاح قد زحفت فيها إلى الباب ثم وقفت حائرة

تائهـة تـتفحص فـى الـواقفين الـذين راحـوا يتزحزون بعيدا فى اشمئزاز وتأفـف مـن منظرها وكانت هى غارقة فى الحرج لا تدرى ماذا تفعل أكثر مـن التوسـل فـى الـنداء: «لـو سمحت والنبى يا ابني! يا قولك ايه يا دى الجدع!»، أدركتـها: «عايزه إيه يا حاجه!» قالت: «والنبى يا سعادة البيـه ماتعرفش تلميذ هنا فى الطب اسمه صلاح البدوي!»، ابتسمت لها وقلت: «تقـصدين الدكـتور صـلاح بـدوي؟ طـبعا زميلي!» عاجلتني: «طب والنبى تقـول لـه فـيه واحـدة مـستنياك بره!» ،وكانت فرحة جدا بلقب الدكتور يـزين اسـم ابـنها، قلـت لها: «حضرتك أمه؟» فارتبكت جدا، تلجلجت: «إ...أ..لأ..لأ.. بـس قـول لـه وهو حيعرف!». صحت فيها بغيظ: «قول له مـين يعني؟!» راحت تتوسل: «إن شا الله ما اشتهيك! قول واحدة قريبتك وهـو حيعـرف! بص! قول له جارتكم بتاعة الحلاوة!» .ورغم أننى كنت واثقـا مـن أنهـا أمه فإننى حين التقيته همست فى أذنـه: «فيه واحدة ست شبه بلدنا بتسأل عليك!».

واجبُ عَزاء

حينما تأهبت لدخول المعزى فى جامع عمر مكرم تصادف أن كان شيخ الصحفيين وأستاذهم جميعا يمد قدمه للصعود إلى الرصيف، فمددت يدى لمعاونته شاعرا بالزهو لنيلى هذا الشرف، هو الآخر كان أكثر لطفا وعطفا وأريحية فعانق يدى بدفء واحتواها تحت إبطه ومشينا معا، وعند آخر درجة فى سلم الدخول سحبت ذراعى وتركت الرجل يتقدمنى لمصافحة صف طويل من زملائنا الواقفين لتلقى العزاء فى زميلنا صحفى الفن المخضرم الذى رحل بالأمس عن خمسة وسبعين عاما كان خلالها ملء السمع والبصر مثالا للنزاهة وطهارة اليد..

قادنا أحد المستقبلين إلى ركن داخلى يبدو من تميز كراسيه أنه مخصص لمرتبة معينة من المعزين حيث لمحنا أحد الوزراء ومن حواليه عدد من المعزين ذوى ملامح صحراوية جامدة على بشرة فخارية اللون إلا أن سمت الأهمية كان يهيمن عليهم، لكن الأستاذ توقف مترددا وبدا كمن يتجنب الوقوع فى ورطة، ما لبث حتى استدار عائدا إلى الركن الملاصق لباب الدخول، فتبعته تلقائيا وسررت جدا حينما رأيته يتلفت وراءه بحثا عني. ثمة من كان يجلس فى هذا الركن بمفرده وإن كان ترك

الكراسي الشاغرة الكثيرة وتخير هذا الكرسي في مواجهة الممر إلى الشريحة الداخلية التي رفض الأستاذ أن يجلس فيها، إنه الصحفي الشاب النشط سين صاد الذي بزغ نجمه فجأة في الصحافة السياسية وهو لا يملك من مقومات الكاتب السياسي أو حتى من مبادئ الانتساب إلى القلم أي شيء على الإطلاق، لا يملك سوى الجرأة والصفاقة وعبارات مسكوكة من رواسب صحافة الابتزاز في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين لا تزال تحتفظ برنينها الابتزازي المرعب لذوي النفوس الضعيفة والمضروبة بالفساد وهذا ما جعل له ولأمثاله سعرا وحضورا في سوق الصحافة المستقلة والحزبية، وها هو ذا – كما تؤكد الأخبار والإعلانات اليومية – يجهز لجريدة يومية مستقلة سوف تصدر بعد أيام قليلة هو رئيس تحريرها ومجلس إدارتها معا..

شعرت أن الأستاذ محرج من تجاهله، إلا أنه بدماثته المعهودة حياه بإيماءة مبتسمة، ثم ترك الكرسي المجاور له وجلس فوق الذي يليه، وفيما كنت أخطو لأجلس على الكرسي المجاور للأستاذ قرب الركن فوجئت بأحد أحباء الأستاذ قد ظهر فجأة وعانقه بحرارة ثم جلس على الكرسي، ولما كنت راغبا في الجلوس لصق الأستاذ فقد اضطررت إلى الجلوس فيما بينه وبين ذلك الصحفي برغم نفوري من شكله المتغطرس المنفوخ يكاد يفرقع من النفخة الكذابة وافتعال الكبرياء، يكفيه صفاقة وقلة حياء وانعدام أدب أنه بقي واضعا ساقا على ساق وهو يرد على تحية الأستاذ فيما كنت أتوقع أن يهب واقفا ليصافحه على سبيل الوفاء واحترام رموز المهنة سيما وإن كانوا كبارا بحق وحقيق، ثم ها هو ذا لا يريد أن يتزحزح قليلا كي أتمكن من ترييح الكرسي. داهمتني رغبة عدوانية

تجاهه، زحزحت الكرسى بعيدا حتى لا أزعج الأستاذ حيث سحبته إلى الوراء قليلا ثم جلست وزحفت به إلى الأمام متعمدا أن «أعطيه كتفا قانونيا» خشنا ودونما اعتذار، سعدت جدا إذ رأيته يكاد يترنح، لكنى فوجئت به يبتسم كالمعتذر ثم يزحزح كرسيه قليلا ثم يعتدل فى جلسته بقليل من التواضع ثم يربت على كتفى فى ود مزعوم ويسألني: أخبارك إيه اليومين دول؟ قلت دون أن أنظر إليه: الحمد لله بخير. فوضع ساقا على ساق وانجعص وأرسل عينيه إلى الشريحه التى يجلس فيها السادة النُّجب. كان مكبر الصوت يصب المتفجرات الصوتية فى أذنى من السماعات المنصوبة خلف رءوسنا مباشرة مع أن صوت المقرئ كان جميلا وعذبا وجاذبا للإنصات، إلا أن شوشرة ذلك الجالس بجوارى غطت على شوشرة السماعات فلم أفلح فى نزعه من دماغي. راح دماغى يقاوم فى الدفاع عن نفسه ضدي، وكأنما أراد عقلى أن يدفنه فى قبر النسيان فقال صوت فى دماغى يخاطبني: إن هذا الجالس بجوارك لم يمسسه شيء من الأستاذ وليس مدينا بأى فضل لأى أحد من أصحاب القيمة فعلام تندهش إذا اتضح أنه ليس ثمة من وشائج تربط بينه وبين أمثال الأستاذ؟

صدق الله العظيم. وبدأ ناس يقومون واقفين، فإذا بذاك الجالس بجوارى يعتدل فى جلسته، ظهر على كيانه سمتٌ صوره لى فى صورة سائق خصوصى - شوفير - كان ينتظر سيده الباشا. يا إلهي! الصورة ليست تكذب ها هو ذا قد انتفض واقفا منكمشا على نفسه كأنه قد أعيد إلى علبته الدونية التى تحرر منها أثناء جلوسه، اندفع مهرولا مثلما يفعل الساعى الخصوصى عند حضور رئيس مجلس الإدارة. أنا والأستاذ والجالس بجواره نظرنا نحو ذلك السيد القادم فى الممر تحوطه حاشية من

المرافقين، قال الجالس بجوار الأستاذ مشيرا إلى ذلك السيد المهاب: ده ابن رئيس عربي، أومأ الأستاذ برأسه مبتسما: أعرفه! شاب لطيف وطموح. كان ذلك الصحفي قد اخترق الحاشية ومشى بحذاء سيده رافعا رأسه في زهو، ثم تنحى وقدمه ليصافح الواقفين وهو ماض في كعبه مباشرة يكاد يحوط عليه بذراعيه ليحميه من مجهول سيختطفه. عندئذ لويت عنقي في اتجاه الأستاذ فالتقت نظرتي بالأسف في نظرته فيما كان الجالس بجواره قد امتعض وهو يرى آخر أفراد الحاشية يهبط درجات سلم النزول حتى آخرها، ثم اعتدل مغمغما: جاتها نيله اللي عايزه خلف!.

عُوصَةْ

ولدنا الفنان الشاب ماهر سليمان، الذى تربطنى به حميمية خاصة تفوق مشاعر الأبوة لعلها نشأت من كونه ريفيا مثلى ويكرر تجربتى فى المدينة.. دعانى لمشاركته الاحتفال بعيد ميلاده فى مشرب عام من محلات وسط المدينة يتمتع بشهرة كبيرة. كان الاحتفال فى القاعة العائلية المستطيلة التى امتلأت عن آخرها بالمدعوين. عدد قليل فقط منهم لم أكن أعرفهم، أما معظمهم فمن الذين تربطنى بهم علاقات صداقة وزمالة ومصالح مشتركة. الجو الأسرى يخيم على الجميع يضخ على الموائد إشعاعات من الأنس والمودة وروح المجاملة والإيثار.. إلا أن القعدة ما لبثت حتى تشرذمت فى ثنائيات وثلاثيات وخماسيات حيث اندمج الجميع فى حوارات جانبية، بعضها ضاحك صاخب، بعضها هامس فى جدية، بعضها الثالث يتبادل العتاب فى حدة..صارت القاعة تضج بهرج وغاغة، بدا لى أننا جميعا كائنات مجنونة ليس وراءها ثمة من مسئوليات على الإطلاق..

فجأة دخلت صبية ضئيلة الحجم مبرومة القوام ناضجة الأنوثة جميلة الوجه والطلّة مفتحة الملامح ينضح وجهها باللباقة، تجر خلفها

طفلا فى حوالى العاشرة من عمره، شكله جميل جدا، يرتدى أفخم الثياب. أحدثت فى القعدة رجّة، تلقاها المحيطون بى بصيحات الترحيب والاشتياق الشغوف. سلمت على البعض باليد، ارتمت فى أحضان البعض الآخر. كل من صافحها انعطف على الطفل فداعبه ولاطفه، صار من الواضح أنها أم لهذا الطفل البديع حقا.. ثم إنها انحازت إلى مجموعة من أصدقائى القدامى كانوا يجلسون على يسارى ولا يفصلنى عنهم انكفاؤهم على موضوع شبه خاص يتحدثون فيه بغموض ولكن بجدية واضحة تكاد تكون مريبة. كان الضجيج والصخب يمنعاننى من التركيز فيما يقولون حتى بدأت أشعر بأننى صرت فى عزلة تامة. العجيب أن هذه العزلة برغم بطانة الصخب الهائل منحت ذهنى كثيرا من الصفاء والرغبة فى التأمل..

الفتاة مندمجة مع الأصدقاء فى حديثهم الجانبى وكانت ضحكاتها الرنانة غير المتحفظة تلعب دور الموسيقى التصويرية المصاحبة لحديثهم. داخلنى شيء من اليقين أنها زوج لواحد من هؤلاء أو لواحد من أصدقائهم سوف يحضر بعد قليل، إلا أننى وجدتنى متعاطفا معها بشكل غريب، ربما لأننى تبينت أنها تشبه ابنتى الكبرى إلى حد التطابق فى الشكل فى اللون فى الملامح فى تفاصيل وحجم الجسد، بل إن ابنها هذا قريب الشبه جدا بحفيدى وفى نفس عمره تقريبا..

لحظة أن تملكنى هذا الخاطر سمعت ألفاظا قبيحة تتردد فيما بينهم لم أكن أتوقع مطلقا أن تصدر عمن صدرت عنه وبخاصة فى حضور سيدة معها طفل فى العاشرة من عمره يلعب على مقربة منهم ولا ينى يتابعهم فى قلق واسترابة مكظومين. قبل أن تستوعبنى الصدمة قام أحدهم

وانصرف، بعد قليل انصرف آخر، فثالث، فرابع، بدا كأنها تريد أن تهزأ بكلام من يكلمها إذ رفعت عقيرتها بالغناء فى صوت لم أسمع أقبح منه فى حياتي. فى نفس اللحظة كان الشاب الجالس إلى يمينى - والذى تعرفت عليه منذ قليل فحسب - قد جعل يسمعنى صوته بأغنيات لمحمد عبدالوهاب القديم، كان صوته جميلا فعلا لولا أن صوت هذه المرأة الضئيلة الحجم كان يركب فوق جميع الأصوات. أردت إيقافها، وكان اسمها قد صار معلوما مشاعا فناديتها بحسم بلهجة من يقول: اخرسي. فإذا هى قد انتقلت إلى المقعد الملاصق لمقعدى بعد رحيل من كان يجلس فوقه، لاصقتنى بجسمها فى تودد مبالغ فيه، فمن باب الملاطفة والاعتذار عن إسكاتها ربتُّ بكفى على كتفها فى أبوة واضحة، فارتمت على كتفى واستنامت، عندئذ جاء طفلها وقد تلبكت ملامحه فى كآبة وشعور بالقهر والهوان، كان كأنه يريد أن يكون رجلا حاكما، قال: قومى لنمشي، فرمقته بنظرة امتزج فيها الاستهجان بالاحتقار، فانفجر الولد باكيا، صائحا بكلمة واحدة: يا مامي. مزقت قلبى بما فيها من قهر وهوان، والتفتت هى نحوى قائلة «هات عشرة جنيهات»، فبلا تردد نزعت من حافظتى ورقة سلمتها إليها، فأعطتها لطفلها قائلة فى جدية: «اركب تاكسى وروح».
الولد أخذ الورقة وانزوى بعيدا يبكى فى صمت، وإذا بأفندى أسمر الوجه ذى لهجة مغاربية بدوية يأتى ويميل عليها يساومها بوضوح علني: «أنا واثنان نكمل السهرة معا فى شقتى ونعطيك كذا»، نظرت لى كأنها تطلب الإذن منى أو تطلب تحديد موقفى بعد أن دفعت العربون من جيبي، لكننى لشدة غبائى فهمت العكس، فهمت أنها تستنجد بى لرد هذا العدوان، فمددت ذراعى وأزحت الرجل عنها بغضب مصحوب ببعض

عبارات اللوم والتبكيت، فانصرف مغيظا، ثم ارتد عائدا وراح يردح لى بصوت عال رهيب: «أنا آسف على كل يوم احترمتك فيه من قبل! أنت لا تستحق الاحترام!». كان مشهدا مسرحيا استمر لثوان وأنا من فرط الذهول أصابنى الخرس والوجوم، أما المرأة الضئيلة فقد اختفت فى لمح البصر، وقمت أنا متخذا طريقى إلى الشارع والكل من ورائى يحاول استرضائي، حتى الرجل الأسمر نفسه أدرك اللبس فجاء يعتذر بأنه سكران ونادم على ما فعل. كنت غاضبا جدا، ولكننى ما لبثت حتى استوعبت جوهر الموقف برمته فانفجرت ضاحكا فى هستيريا، ظللت أضحك حتى أويت إلى الفراش، وعندئذ افترستنى مشاعر أسيفة إلى حد شديد الإيلام.

عبورُ البْرزخ

بـدون اسـتئذان، وبجلافـة فطـرية مـؤلمة، سـحب الكرسى من تحت ترابيزتـى وعدلـه سـاندا مسنده للحائط ثم جلس واضعا ساقا على ساق فى مهابـة بلهاء ثم أشار إلى الجرسون فى طلب واحد شاى ميزا، فى حين كان الجرسـون والجالـسون مـن حـولى قـد فوجـئوا بمـا فعل فخيم عليهم توتر لطيف وصارت ابتسامة متوجسة تلمع فى فضاء المقهى متنقلة بين شفاههم فـى انتظار ما قد أفعله. ذلك أنـهم جميعا يعرفون أن هذه ترابيزتـى وحدى ولـيس لأى زبون أن يجلس إليها قبالتى حتى لا يشوشر وجوده بما سوف يطلـبه علـى خلوتى ويعطلنى عن التفكير والكتابة. صاحب هذه المقهى فى هـذا الحـى البعيد سعيد بأننى اخترت مقهاه للجلوس والكتابـة بعيدا عن ضجيج المديـنة لأن شلة كبيرة من أصدقائى تجيء إلى هذه المقهى للجلوس معـى ولكـن علـى ترابيـزات مجـاورة، كما أنـهم يعرفون طبيعة عملى فلا يـتطفلون علـى فـى لحظـات استغراقى فـى الـتفكير أو فـى الكتابة أو فى القـراءة، ثـم إنهـم لا يجيـئون إلا فـى المـساء عـندما أكـون قـد فـرغت من الانـشغال وتأهـبت للـسهرة معهم فى تدخين الشيشة والتحاور الحميم.. شـخص واحـد فقـط هو المسموح له بالجلوس معى إلى نفس الترابيزة، ذلك

هو عم أحمد السماك الذى ينتهى من بيع سمكه فى مزلقان منشية ناصر ثم يستحم ويلبس ثيابه النظيفة كالعمدة ويجيء ليجلس معى إلى آخر السهرة فيقوم بمهمتين جليلتين: أن يتولى أمر شيشتى ومشروباتى والإنصات إلى ملاحظاتى أو الإنصات لمشاكله فى السوق من حين لآخر على سبيل الفصل بين اللحظات وترويق الأعصاب وتجديد المشاعر، المهمة الثانية أنه يحجز - بجلوسه معى - هذا الكرسى حتى لا يقتحمه زبون غريب أو شخص غوغائى من رواد المقهي؛ سيما وأننى أفرد على الترابيزة أوراقا وكراريس وكتبا وأقلاما ومحبرة فإن وضع أحدهم كوب ماء أو شاى فمن الوارد أن يندلق أو يتناثر رذاذه على الورق فأفقد أعصابي، وحتى الطقطوقة النحاسية التى توضع فوقها المشروبات يتولى عم أحمد إحاطتها بحرصه وعنايته حتى تنتهى المشروبات بسلام.

الرجل المقتحم شكله مهيب، يبدو موظفا كبيرا بدرجة وكيل وزارة من أصول فلاحية لها على سمته بصمات من الجدية والصرامة والثقة، ولأنه وجه جديد تماما على المقهى ومجهول الهوية بالنسبة لنا جميعا لذلك تحرج الجرسون من لفت نظره إلى الانتقال إلى ترابيزة أخرى، فالجرسون دائما يتحفظ فى التعامل مع كل وجه جديد خاصة إذا كان مهيبا كهذا الرجل، لكنه اكتفى بالتلكؤ فى الإتيان بالشاى بل اختفى عن الظهور فى محيطنا.

كان وجهى فى اتجاه الشارع فيما أنا مستمر فى الانكباب على الكتابة متجهما بقدر الإمكان لإشعاره بأنه غير مرغوب فيه مني. أما هو فكان وجهه تجاه فضاء المقهى مرتكنا بكوعه الأيمن على رخامة الترابيزة التى كانت تهتز تحت حركة يدى بالقلم دون أن يبالى أو يلحظ بأنى قد

بـدأت أتململ فى استنياء لأن جانب كتفه بذراعه الضخم السمين قد حجب الـضوء عـني. تـذرعت بالـصبر وحاولـت تجاهله. إلا أننى شعرت بعينيه الواسـعتين تختلـسان نظـرات جانبـية فـضولية نهمـة وخاطفة ومتكررة، بدأت أتوجس فى أن يكون جاسوسا مدسوسا علىّ من جهة أمنية لمعرفة ما هـذا الـذى أجيء لأكتبه فى هذه المقهى، فبدأ دبيب التوتر الحانق يسرى فـى عروقـي. حاولـت إخمـاد التوتـر بالإمعـان فـى التجاهل، لكن نظرات الـرجل راحت تزداد جرأة، رأسه تكاد تنعوج نحوى ليتمكن من قراءة ما أكتب.. فتشنجت يدى بالقلم ورفعت عينى بنظرة تأنيب، فعدل رأسه فى الحـال ووجـه نظـراته إلى فضاء المقهى، واستأنفت أنا كتابتي. فإن هى إلا بـرهة وجيـزة وبـدأت نظـراته الجانبـية تتـسلل، إلى أن انعـوجت رأسـه تلقائـيا ليـتمكن مـن تدقـيق النظـر فيما أكتب، كانت نظراته تكاد تخترق صـدرى ورأسـى مـن شدة مـا فـيها مـن فضول نـهم إلى حد الصفاقة، فمرة أخـرى تـشنج القلـم فـى يـدى وسـلقته بنظـرة أردت أن يتطاير منها شرر أحمـر يعـشى عينـيه، فـإذا بـه يـشعر بكـثير من الحرج هذه المرة ويعدل رأسه محاولا السيطرة على نظراته الشاردة، ويبدو أنـه لم يجد شيئا يفعله بهـا فـوجهـها إلى نـصبة المقهـى ثـم صـفق صـائحا فـى طلـب الشاى بنبرة احتجاجـية ثـم لاذ بالصمت وقد ظهر على وجهـه الكثير من السأم ممزوج بمـسحة انكـسار كـادت تـستقطبنى للإشـفاق عليه. مضت برهة طويلة ثم شرعت نظراته الجانبية تتسلل فى حذر وتوجس ثم فى جرأة..

عـندئذ فقـدت الـسيطرة علـى أعـصابي، فبكل عصبية رميت بالقلم، رفعـت الكراسـة التـى كـنت أكـتب فيـها، بحركة مسرحية غاضبة عدلت

الكراسة فى اتجاهه وألقيت بها بين يديه ثم جعلت أخبط فوقها بظهر يدى صائحا فيه بخشونة تهكمية متحدية:

«اتفضل حضرتك اقرأ براحتك وتمعن فيما تقرأ!».

الوجه الضخم بملامح الجدية والثقة والمهابة قد تداعت كل تقاطيعه وساحت فى بعضها فصار وجهه كتلة لحم لسوعتها النار الحامية فأحرقت الجبين والخدين حتى لقد خيل إلىّ أن دخانا أسود يتصاعد منهما، وبقى هو صامتا فى ذهول، الجسد الفارع المهيب صار طفلا مذنبا على وشك البكاء مزموم الشفتين. خف توترى قليلا لكننى كررت عليه بعصبية أقل:

«ما تقرا اتفضل اقرا.. شوف!».

عندئذ ترقرق الدمع فى عينيه، أتانى صوت فلاح مقهور من داخل بدلة فخمة يقول بانكسار وطيبة قلب مؤلمين:

«يا ريت! آنى ما باعرفش استقرا!».

دموعى سبقت دموعه، طويت القلم صائحا: الشاى للراجل يا مصطفى.

سَيلانُ الحَجَرْ!

كنا رعيلا من محبى الغناء الحديث، جمعتنا الإذاعة، خاصة إذاعة صوت العرب من القاهرة، على الصداقة العميقة والمحبة المخلصة. كنت، أنا وجدى الحكيم مقدم البرامج ومدير المنوعات فى صوت العرب، شاهدا على ميلاد كل هذه الأغنيات التى ساهمت مجموعة الأصدقاء فى صنعها منذ نشأة الأغنية كفكرة أو كمذهب فى ذهن الشاعر إلى أن تصبح نغما شعبيا حميما على ألسنة جميع الناس فى جميع أنحاء الوطن العربي. كنا أشبه بخاتم من الذهب وعبد الحليم حافظ هو حجره الكريم، فص اللؤلؤ الجاذب لجميع ألوان الطيف.. نفهم بعضنا بعضا كأننا كيان واحد متعدد الأدمغة متنوع الألوان متجدد الدماء: كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى وحلمى بكر ومرسى جميل عزيز ومحمد حمزة وعبد الرحمن الأبنودى وصلاح عرام وأحمد فؤاد حسن ومئات من موسيقيين وشعراء وصحفيين وإداريين ومهندسى صوت ومقدمى برامج تتكون منهم دائرة من المحبين المستعدين دائما لافتداء عبد الحليم بحياتهم والسهر على تدريباته وراحته من أجل أن يمتع الملايين من عشاقه..

اعتبرت نفسى محظوظا إذ قدِّر لى أن أكون صديقا لأكبر نجم فى الغناء فى العصر الحديث أحدث تحولا فى أسلوب الغناء من التطريب الصرف إلى الأداء التعبيرى ومن الجهارة الصَّداحة إلى الهمس الشجى الدافئ، وأن أكون شاهد عيان على تجربة غنائية خطيرة الشأن كتجربة عبد الحليم التى شارك فيها جيل بأكمله، وأن أرى بعينى كيف يمكن لفنان أن يحظى بكل هذا الحب والاحترام، كيف يحترق النجم لكى يرضى جمهوره؟.. كل أغنية كانت أشبه بتمثال من الجرانيت يتم نحته فى شهور، ربما فى سنوات، النص الشعرى يضع التصميم المبدئي، اللحن يشخصه على الكتلة الموسيقية إن صح التعبير، أداء عبد الحليم يبث فيه الحيوية والحياة ويعمق ملامحه ويعطيه شخصيته المتميزة.. لا غرو أن ينحفر اللحن فى ذاكرة الوجدان العام هيهات أن يمحوه الزمن.. عشر جلسات للتدريب مع الفرقة الموسيقية عشرون ثلاثون مائة، لا غضاضة، فليقبض الموسيقيون أجورهم عن كل جلسة فهذا حقهم حتى وإن تعثر اللحن لأى سبب من الأسباب أو فقد هو حماسته له لأى سبب من الأسباب..كل مال رخيص فى سبيل الفن، بل إن صحة المغنى ذاته ليست أعز عليه من الفن، حياته هى سلامة الفن، صحته البدنية والنفسية تصير فى أزهى نضارتها حين يعكسها تألق الإعجاب فى عيون جمهوره حتى وإن كان فردا وإن كان الفرد طفلا.. كل شيء إذًا يهون فى سبيل هذا الألق فى أعين المحبين حتى وإن وقع فريسة للنزيف المعوى عقب كل حفلة.

عن قارئة الفنجان حدث ولا حرج، شهور طويلة ينفقها فى مطاردة الشاعر نزار قبانى ما بين لندن وباريس وسوريا ولبنان والعراق وسويسرا من أجل أن يقترح عليه مفردة أو مفردتين لا أكثر، كم تتكلف المكالمات

الهاتفية الخارجية التى قد تستمر لساعات عبر الهاتف، كم تتكلف من جهد عصبى فى بدن عليل؟ ليس يهم، إنما المهم أن تتسق القصيدة مع مشاعره ولسانه اتساقا كاملا.. أكثر من عامين ومحمد الموجى يحاول الانتهاء من تلحينها، هو الآخر نمكي، يلحن على طريقة شغل الأرابيسك والمنمنمات والفسيفساء، ألحانه تجيء فى رشاقة ومرونة الصبايا الفلاحات يحملن بلاليص الماء فوق حافة رءوسهن لو رأيته ظننته سينقلب لدى أقل حركة إلا أنه ليس ينقلب مطلقا والصبية من تحته تتلعبط كالبلطية فى سيرها كراقصة الباليه، أسراب من صبايا رقصن على صوت عبد الحليم.. عبد الحليم يعرف هذا عن الموجي، يعرف أيضا أن كمال الطويل بألحانه من بنات البلد بالملاءة واليشمك فى الغورية أو على شط إسكندرية وهن هن الرشيقات لابسات البنطلونات الجينز فى الجامعة، فى ألسنتهن ظل خفيف من بقايا تطجين من الأصول البلدية فى الحارة المصرية، مع طلاقة أبناء الذوات ولطفهن، وحياء بنات الطبقة المتوسطة وذكائهن، كذلك يعرف عبد الحليم أن بليغ حمدى وريث حسن المغنواتى فى الموال المصرى قد دونت فى وجدانه لفولكلور عصرى مواز لفولكلور المصرى العتيق ينبع من نفس الموروث الوجدانى الذى تفرع فى سيد درويش ومحمد فوزى بثقافة علمية معاصرة، الألحان البليغية الحمدية فيها نعير السواقى وهدير المياه عند فتح الهويس، وفيها غربة الناى وجهارة الأرغول ونواح الرباب وفضفضة الدربكّة وهياج الدف وصوفية القانون وبهجة الرق ودندشته.. يعرف كذلك أن قصيدة قارئة الفنجان هى سكة الموجي، ذلك الولد الفلاح - معاون الزراعة - صاحب البال الطويل فى الجلوس أمام الغجرية واستكناه ما فى شخصيتها من

سحر وفراسة.. الموجى يريد أن يفعل هذا بأقصى ما لديه من قدرة على البيان الموسيقي، لكن الجرى وراء الرزق يقهره على هجرة الغجرية أوقاتا كبيرة ينفقها فى صنع طقاطيق سريعة الإنجاز سريعة الرواج والمدخول، غير أن عبد الحليم ليس يقبل مطلقا أن يجيء حفله السنوى دون أن يغنى فيه لحنا جديدا، ولقد آن الأوان لظهور الغجرية، فما كان منه إلا أن استدرج الموجى ثم حبسه فى حجرة فى فندق فى منتجع معزول إلى أن ينتهى من اللحن. وقد كان، وحينما انتهى الموجى من اللحن كان قد وقع فريسة للأنفلونزا الحادة فغاب صوته تماما فلم يتمكن من تحفيظ عبد الحليم، ولكن تحت إصرار عبد الحليم وقوة إرادته كتب الموجى نوتة اللحن، واستطاع عبد الحليم أن يحفظ اللحن من عزفها على العود إلى أن عثر الموجى على صوته فأكمل الرتوش النهائية.. المؤسف أنه فى ليلة الحفل، وبعد كل هذا العناء، وبينما عبد الحليم واقف على المسرح يؤجل - بإرادة خارقة - نزيف المعدة ليدخل فى حالة التبتل الغنائى الذى ينسيه كل شيء ما عدا توصيل الشجن والبهجة إلى قلوب هذا الجمع الحبيب، إذا بعض السخفاء السفلة يصعدون إلى خشبة المسرح حاملين بدلة عليها فنجان، يريدون إجباره على لبسها، يعنى يصير مسخا على المسرح.. ردهم بعصبية، وقف ينتظر سكوت الهرج والمرج، عندئذ مرت بذهنه ملاحظة أبداها لنا صديق تونسى فى جلسة خاصة، ملخصها أنه يستنكر الصفير الذى يطلقه الجمهور فى حفل الغناء لأنه دليل على الهزء والسخرية، ويومها حاول عبد الحليم تفسير ظاهرة الصفير بأنها عند المصريين دليل استحسان، وليلة الحفل انتبه إلى أن ظاهرة الصفير هذه غوغائية بالفعل ولا يصح أن يسمح بها فى حفلات الغناء، حكاية البدلة

ضاعفت من غضبه عند ارتفاع الصفير، شعر ساعتها أن الصفير إهانة إضافية وإصرار على السخف المتعمد، فقال لهم: على فكرة أنا باعرف أصفر زيكم .. أهه! وضع أصبعيه فى فمه وأطلق صفيرا، فكأنه رمى بقطعة نار بين حطب جاف، اشتعل الصفير آخذا الشرعية، ظل الهياج لدقائق طويلة مملة وعبد الحليم يتشبث بآخر ما عنده من صبر، أخيرا صاح بشيء من الحدة: بس بقى! ، وكأنه كفر وتوضأ باللبن، هاجت الصحافة ومسخرته وآذته بالمن والمعيرة وبأنه يدعى المرض ليستدر عطف الناس. شعر عبد الحليم بالذنب، لقد أخطأ فى حق جمهوره، اضطر إلى الظهور فى عدة برامج تليفزيونية وحوارات صحفية يعتذر فيها للجمهور إن كان قد أخطأ دون أن يدري، لم يكن جبانا، إنما كان كالعاشق الذى فوجئ بأنه دون قصد منه قد خدش حياء محبوبه، راح يشرح سلامة نيته. أجريت معه حوارا، أدركت كيف كان يهم بالقول إن المرض ليلتها كان يمزق أمعاءه ثم يتذكر فيتردد ويمسك عن الكلام عن مرضه حتى لا يؤكد قولهم بأنه يدعى المرض لاستدرار عطفهم فى حين أنه كان مريضا بالفعل وأن الإهانة وكسرة النفس ليلتها قلبت مواجع الأمعاء وهيجتها لدرجة أنه كان يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة عقب كل مقطع فيشير إلى الفرقة الموسيقية أن تعيد وتزيد وتطيل حتى يسترد أنفاسه..

أن يسافر عبد الحليم إلى لندن لإجراء العملية الجراحية لا بد أن تكون رجلى على رجله، لكننى كان يجب أن أكون وسيطا إذاعيا بين جمهوره فى القاهرة وسريره فى المستشفى فى لندن، صرت كالمكوك بين لندن والقاهرة، أنقل إليه كل دعوات الشعب المصري، وكان يتأكد ساعة بعد ساعة أن جمهوره قد أعلن رفضه للكتابات المسمومة وصدق أن نجمه

الحبيب مريض بالفعل ويستحق الصلاة من أجله، كان على السرير يلفظ أنفاسه الأخيرة، فما أن يسمع سيرة الجمهور ومصر حتى يقاوم شبح الموت، يفتح عينيه ويرسم على شفتيه ابتسامة الرضا والسعادة، لكن إن هي إلا برهة وجيزة حتى تجمدت الابتسامة وانطفأت في وجنتيه ذبالة ضوء الحياة.. الدنيا كلها ماتت مع أن الحركة تدب من حواليه خرساء، أما هو فإني قد رفضت تصديق موته، كنت أراه حيا وهو مسجى فى فراش العدم مطروح عليه غطاء النهاية..

الدموع تحجرت فى عيني، الكل راح يبكى من حولي، الأطباء والأسرة والملاءات والأدوات والمناضد وحتى نهر التيمز وجسر واترلو، وجميع الأثير العربى والعالمى اندفع يردد الخبر ويزخر بالنواح تتخلله أخبار عن منتحرين ومنتحرات احتجاجا على هذا الحدث الكونى المروع، ظللت مندهشا من هروب الدمع إلى أن وصلت الطائرة مطار القاهرة، إذا بالأرض مبذورة بالبشر وإذا بالطائرة تحاول السير على الأرض منذرة بكارثة. كانت مخيلتى قد هبت من رقادها فجأة، رأيت أمام ناظرى شريطا حيا لعبد الحليم حافظ نجما ساطعا يهبط فى المطارات العربية والعالمية فى بهجة وزينة وأبهة، كم فى استقباله من علية القوم؟ ملوك، أمراء، رؤساء جمهوريات فى استقباله أو فى وداعه فى كل مطار.. أفقت على ذلك المنظر القابض للقلب: عبد الحليم حافظ فى مطار القاهرة ينزل هذه المرة من مخزن الحقائب فى الطائرة مشحونا داخل صندوق خشبى خفيف الوزن ضمن المنقولات! ! عندئذ فحسب، ساح الحجر فى عيني، سال دمعا هاطلا ملتحقا بنهر الدموع على أرض مطار القاهرة، صار الصندوق الخشبى يسبح فى الفضاء فوق أكتاف الجماهير كأن أمواج النهر المضطربة تتلاعب به فى مهب عاصفة كاسحة.

علاقةٌ مشبُوهة!

لأن الأمـر فى البداية لم يكن واضحا تماما فى مخيلتى فقد تعين عليّ أن أحـتمل تـريقة الأصـدقاء، وملاحظـات الـثقلاء ممـن يطـيب لهم إثبات دقـتهم فـى الملاحظـة، حتـى المقربين منى فى محيط العمل كانت تلوح فى أعيـنهم بـوارق نظـرات غـير خالـصة مـن الخبث بل لعلها ملوثة بلزوجة اتهام خفي.

العجـب العجاب أن هؤلاء وأولئك لم أجد لهم عندى ثمة من روادع، فأنـا نفـسى لم أجد لسلوكى ذاك تفسيرا مقنعا.. على الأقل لي، وفى نفس الوقت لا أجد مفرا من الاستمرار فيه بغير تحفظات على الإطلاق!

أبدا لم يكن لى ثمة من غرض خبيث..

ولكن الخبر قد نضج واستوى، وذهب إلى أذن زوجي، لا أدرى كيف تـسرب إلـيها، ولكننـى لاحظـت أن تكـشيرة جهمـة بـدأت تعقـد ما بين حاجبـيها.. كانـت تكـشيرة لطيفة فى البداية ذكرتنى بأيام شبابنا الغض فى مقتبل الحياة الزوجية حينما كان هناك مبرر مفهوم للغيرة، أما اليوم وقـد صـار لـنا أحفـاد، وصرنا معا على باب الله فى المسائل إياها فليس من المنطقـى ولا هـو مـن المعقـول أن تـستمر تكـشيرتها كل هذا الوقت الطويل

بسبب شائعة تافهة صنع منها الخبثاء حدوتة يشغلون بها فراغ أيامهم وخلو أذهانهم.

وأصل الحكاية أننى غاليت فى إظهار تعاطفى مع سيدة من إقليم الفيوم اعتادت أن تفرش على الرصيف المقابل لمبنى المؤسسة التى أعمل بها، تبيع الجبن القريش، والزبدة، والفطير المشلتت السخن دائما الذى يتطابق مع الفطير الأصيل القادم من بلدتنا لا يقل عنه دسامة ولا دقة صنعة، وكثيرا ما تأتى بقفص ملآن بزغاليل الحمام.

هى امرأة عجوز فى حوالى الخمسين من عمرها، وجهها على درجة عالية من الجمال الفلاحى الصريح الصارخ لكنه لا يعرف اللوع وبريء من كل دنس، ثم إنها جادة صارمة الملامح لا تعرف التحديق فى العيون، خجولة خفيضة الصوت حاسمة حازمة باترة فى حوارها، كلمة ورد غطاها، لا فصال عندها، بل إن أى زبون فى عينيه حصوة ملح ما إن يرى جودة بضاعتها حتى ينكسف على دمه ويتجنب الفصال، ولهذا فإن لفيفا من كبار موظفى البنك المجاور لمؤسستنا يدفعون لها ثمن الزغاليل عند مرورهم عليها فى الصباح ويتركونها عندها ليأخذوها عند خروجهم من العمل، فتلتزم هى بذلك وتغطى الزغاليل وتركن القفص على جنب بعيدا عن مجال العرض، ومع ذلك لا تسلم من العيون المتلصصة، وكثيرا ما أغراها الكثيرون بأسعار مضاعفة لكى تفض البيع السابق وتبيع لهم لكنها لا تقبل ذلك مطلقا وتقول: بارك الله فيما رزق، فإن ألح عليها ملحاح صدته بردود مفحمة على بساطتها فلا يغفر لها الملحاح كسفتها له، ولولا أنه محتاج لبضاعتها النظيفة المضمونة ومقدر فى أعماق صدره لأمانتها وانضباط أخلاقها لحاربها ومنعها من الفرش ها هنا، والواقع أن البعض

- لتغلغُل الشرِّ فيه - حاول مضايقتها لكنها وجدت أنصارا من كبار الناس يحمونها، وكنت أنا على رأسهم، هل كنت أطمع في بضاعتها مقابل أسعار أقل من غيري؟ لا على الإطلاق بل كنت أتفنن في استقطاب الفرص التي تتيح لي أن أضاعف لها الأجر. على أن ما استفز الجميع هو أنني غاليت في التودد إليها بصورة ملحوظة حقا، لدرجة أنني لم أكن أتورع عن الجلوس بجوارها فوق صندوق لدقائق تطول إلى ثلث أو ربع ساعة أحيانا أتمعن في ملامحها الصافية وأتشرب حديثها الحميم شاعرا بأن وشائج قوية جدا تربطني بها وتحفزني على التباسط معها لأقصى الحدود، وأكاد أجعل من نفسي حارسا عليها، أنفعل في الدفاع عنها بحماسة، وإذا رأيتها حزينة باكية يحترق دمي حزنا عليها!!

وذات صبح رأيتها مكفهرة يبكُّ الدم من ملامحها بسبب مضايقات شرطة المرافق، يومها مررت على دورة المياه قبل الذهاب إلى مكتبي، وفيما كنت أمشط شعري في مرآة الحوض أصابتني صاعقة سمرتني في مكاني، كان وجهي في انفعاله صورة طبق الأصل من وجه الفيومية، تذكرت في الحال أن جميع أهلي كانوا يقولون لي إنني حين أنفعل يصير وجهي صورة من وجه جدتي لأمي، في الحال أشرق التفسير في رأسي: نعم! إنني إذن تعاطفت مع الفيومية لأنها صورة طبق الأصل من جدتي لأمي تلك التي كانت أهم مصادر الحنان في طفولتي وصباي.

محاولةٌ للتحرُّر

عطرها المعتق المكمكم معشش فى أنحاء البيت فى جميع أنسجته لا يريد أن يبرح البيت حتى وإن بقيت جميع أبوابه وشبابيكه مفتوحة على الهواء ليل نهار برغم مرور أربع سنوات على رحيلها.. اللعنة! إنه عطر خبيث يختبئ أحيانا حتى ليوهمه بأنه قد زال، لكنه ما إن يفتح دولاب الملابس أو يفتح أحد أدراج التسريحة أو يدخل الحمام حتى يهب عليه قويا نفاذا يهجم على خياشيمه فينشب فيها أظافره، يصيبه إغماء لبرهة وجيزة إلا أنه يفيق على صداع يدق جانبى رأسه بقسوة حتى ليكاد يسمع صوت الدق والطنين الملاحق له..

منذ رحيلها قبل أربع سنوات قرر أن يتصدق بجميع فساتينها وأحذيتها وقمصان نومها وجواربها وبعض حليها. المرحومة كانت وحيدة أبويها المرحومين، والباقون من أهلها أثرياء من باشوات هذا العصر ويأنفون من مخلفاتها المتواضعة بالنسبة لهم رغم أن المرحومة كانت مديرة مدرسة ثانوية للبنات ورئيس مجلس إدارتها باعتبارها صاحبة النصف فى رأسمال هذه الشركة المساهمة إلى جانب كونها التربوية الوحيدة بينهم. كانت الملابس بالنسبة لها غراما خاصا، تنفق عليها معظم راتبها

الشهرى فلا يبقى منه إلا مصاريف الزينة وبنزين السيارة، لديها فى واحد من هذه الدواليب الثلاثة فساتين وتاييرات وأحذية من محلات سان مايكل..

طوى بدلته فوق المشجب ودسها بعناء بين زميلاتها فى الجانب الخاص به من هذا الدولاب، إنه لمندهش من اختباء عطرها بين بدله وقمصانه بنفس الكثافة التى يختبئ بها فى الجوانب الخاصة بها من الدواليب حيث لا تزال تتمركز المقتنيات المستوردة من أشهر الماركات مدسوسة فى الأركان. كثيرا ما فكر فى توزيع هذه المقتنيات الثمينة على البنات اللائى يساعدنه فى تنفيذ تصميماته الهندسية فى مكتبه كرئيس قسم التصميمات فى شركة الإنشاءات التى يعمل بها، لكنه- لفرط خجله- خشى أن يساء فهم معنى هدية كهذه بالنسبة للفتاة، إنه أشد حياء منهن، ثم إنه استعيب الأمر من أساسه، فشريكة حياته التى قاسمته الفراش ثلاثين عاما وأنجبت له ابنه الوحيد المقيم الآن فى أمريكا كباحث فى وكالة ناسا الأمريكية بجنسية مزدوجة، لا يصح التخلص من آثارها على هذا النحو المهين لذكراها، فى نفس الوقت هو عاجز عن تصور كيفية الاعتداء على دواليبها وانتزاع فساتيها والإلقاء بها على أجساد قد لا تستحقها أو لا تقدر قيمتها، هذا تصور لا يقل فى خياله بؤسا ولا انحطاطا عن تصوره إذ يستدعى بائع الروبابيكيا ويساومه على بيعها كصفقة رابحة لكليهما!..

لبس المنامة الصوفية وتمدد على السرير. هو لا يحب ارتداء هذه المنامة لكنه مع ذلك يفاجأ دائما بأنه قد ارتداها دون أن يتذكر كيف سحبها من بين الثياب. المنامة مريحة جدا ولكنه حين ينتبه إليها يشعر

بمـزاج غـامض مـن التأفف والأسى، إلا أنها هى التى اشترتها على ذوقها باللـون الـذى يـروق لهـا ولا يـروق لـه ثـم أرغمـتـه- ربمـا بالأمـر- علـى ارتدائها، لم يكن ليجرؤ على اتهام ذوقها بأنه غير متوافق مع ذوقه، مع أنـه غـير مـتوافق مـع ذوقهـا جملـة وتفـصيلا، إن سـلطت علـيه عينـيها القويتين الواسعتين بنظرة عتاب حادة يصير مستعدا للتسليم بكل ما تريد تجنبا لوجع الدماغ من ناحية، ومصادرة ما سوف ترسمه فى نظرة العتاب مـن ضـعف أنـثوى كـاذب تـريد به إقناعه بأنها أنثى فى نهاية الأمر، ما يـشق رأسـه مـن غـيظ دفـين اعـتقادها الـدائم بأنهـا بمـثل هـذه الومضات الأنثوية العابرة تؤثر فيه عاطفيا فيستجيب لإرادتها، ما يكاد يقتله غيظا وحـنقا اعـتقادها- يرحمها الله -بأنه متبتل فى معبدها، وأنـه تكفيه هذه الومـضات الأنـثوية، يكفـيه أنهـا- وهـى المربية الفاضلة ذات الشخصية القـوية الباتـرة- تخلـع ثـيابها أمامـه وحـده، وتـترك له جسدها العارى تحـت اللحـاف لبـضع دقائـق ينهـى فـيها توتره لكى تنسحب بسرعة إلى الحمـام وتبـيت جاهـزة للوضـوء مباشرة عند صلاة الفجر.. انتفض قاعدا، بحـركة نـصف دائـرية هـبط عن السرير، أعجبته لياقته البدنية رغم أنه بلغ الخامسة والستين من العمر، شعر بشيء من البهجة حين فطن إلى أنه لا يزال بكامل حيويته يترجم الكتب الأدبية التى يعشقها عن الفرنسية، ويرسـم الخـرائط والتـصميمات للكثير من بيوت الخبرة والشركات. ذهب إلى حجـرة مكتبه، عند مروره على المطبخ تسمر واقفا تحت وقع الصدمة، ضـرب رأسـه بـيده، تعجـب من نفسه كيف نسى أنه قد تزوج منذ عامين زوجـا جديـدة، وأن هـذه الفـساتين فـى هـذه الـدرف هى فساتين وأحذية زوجـه الجديـدة، وأن هـذا العطـر عطرها! ولكن لا، إنه ليس عطرها، إن

زوجـه الجديـدة ليـست تـستخدم أى عطـور صـناعية، لقـد اخـتارها لأن جمالهـا طبيعـى ولا يحـتاج لتـزويق، وإنـه ليتذكر الآن أن زوجه الجديدة فتحـية -المهندسة مثله فى نفس الشركة وتصغره بخمسة عشر عاما- هى التى ضاقت برائحة زوجه المرحومة فجمعت كل ما يختص بـها من ملابس وأحذيـة وأدوت تجمـيل وعـبأتها فى بضع حقائب رمت بها فوق السندرة فى غرفة الغسيل فوق سطح البيت!..

هـا هـو ذا يجلـس إلى مكتـبه لا يفعـل شـيئا بعد أن شرب اليـنسون، انـدهش من طلبه لليـنسون مع أنـه لا يحب اليـنسون منذ أن كانت المرحومة تفـرض علـيه أن يـشربه ساخنا قبل النوم. لاحظ أن زوجه فتحية تعـرض جـسدها شـبه العـارى لكـى تلفـت نظـره وعلـى شـفتيها ابتـسامة تدعـوه لمرافقتها إلى الفراش. طوال عمره لم يكن يتوقع ولا ينتظر مثل هذه الدعوة السافرة المبتـهجة، أصابه الإحباط، لقد اعتاد أن لا يرى العرى النسوى إلا فـى الفـراش تحت اللحاف وبالقطاعي. منذ أن تزوج فتحية وهو لا يعرف كيف يحجم عن الاقتحام، كيف لا يستخدم كامل حريته فى خلع ملابسه بأكملـها والـسباحة عاريـا فـوق أمـواج هـذا الجسد العفى المشدود لا يزال طازجا؟ .. ها هو ذا يلحق بها إلى السرير ككل ليلة، كاد يغمض عينيه من فـرط الحرج حتى لا يراها تطوح بقطع ثيابها بعيدا وتضطجع على السرير فـى إغـراء مـتعمد، إنها تحبه وهو متأكد من حبها، متأكد كذلك من أنها تـريد أن تـسقيه الـسعادة بالملعقـة كما وعدتـه يوم فاوضها فى أمر الزواج، ولكـن الحـياء يكـبله بـسلاسل حديديـة غير مرئية، يا للعجب، إن رأس زوجـه فتحـية سـرعان مـا تـسيح ملامحه ثم تغيم ثم يختفى الرأس ثم ما يلـبث حتـي يتكـشف عـنه الـضوء الهـابط مـن بلحة متدلية من فوق ظهر

السرير فإذا هو وجه المرحومة بكل صرامته المدرسية، الجادة إلى حد التجمد كأنه صرة مصرورة على كريات من مشاعر الغطرسة، ها هي ذي -كعادتها الأبدية- تنتظر أن يخلصها من هذا الفعل الكريه عندها، أن ينكب فوقها لاهثا فيدخلها كيفما اتفق وبسرعة قبل أن يتقيأ خارجها فيثير تقززها وقرفه من نفسه.. ها هو ذا قد بدأ يفعل ما اعتاده دائما ولكن.. مهلا حبيبي على مهلك التفاهم بالراحة! هكذا تقول له نظرات فتحية وهي تربت على ظهره فيما تعيد جسده برفق وحنان إلى جوارها وتروح وكأنها تعلم طفلا مبادئ اللغة الجنسية بمفرداتها الأولى وقواعدها.. لكن الكارثة أنه لم يعد ينشد ويقف على حيله إلا في هذه الهجمة اللاهثة التي أصبحت دليلا على كراهيته للجنس ونسيان عالمه بل أصبحت أشبه بعملية فك الحصر لا مفر منها على أي نحو..

أخيرا استكان فوق صدر فتحية باكيا كطفل بائس معاق فعلها على نفسه. بدت فتحية هي الأخرى بائسة أشد منه بؤسا، فهذه سورة ليلية تتكرر على امتداد عامين، هي الآن مغتاظة منه لأنه لا يريد أن يسمع نصيحتها ويعرض نفسه على طبيب، لكن بكاءه هكذا لأول مرة قد أثر فيها فبكت هي الأخرى عطفا عليه وراحت تمرر يدها الحنونة على رأسه وكتفيه حتى راق واعتدل مضطجعا بجوارها مفنجل العينين وبدا كأن البكاء قد غسل روحه ونور ذهنه فابتسم على استحياء، كاد يصيح: وجدتها، لكن خياله طاف به في مغامرة بدت له صعبة لكن لا علاج له بدونها، بها يتم شفاؤه: لا بد أن يتخلص تماما من هذا العطر العتيق اللابد في هذه الأنسجة، لا بد من إزالة كاملة: الملابس والمقتنيات والأسرة والدواليب وإعادة دهن جدران البيت وتجهيزه بأثاث جديد، بل

لا بـد مـن الـرحيل إلى بـيت آخـر وإن كـان متواضـعا.. استراح تماما لهذه المغامـرة، تحمـس لتنفـيذها مـن صـبيحة ربـنا حيـنما تذكـر الـشقة التى اشـتراها لابـنه فـى المقطـم ولم يعـد لهـا لزوم بعد أن استوطن ابنه أمريكا وتـزوج أمـريكية يعـيش معهـا فـى قـصر منـيف، هكذا رفع رأسه وفاجأ فتحـية بقـراره ففـرحت بـه وتحمـست لـه، فنـبه عليها أن توقظه مبكرا ليدبـر أمـر عمال للتنظيف ولشغل الديكورات البسيطة، قبل يدها واندس تحت اللحاف وغطس فى النوم.. فى الصباح نسيت فتحية أن توقظه، وفى الـضحى تذكـرت، حـين شرعت تـهزه كان واضحا أن السر الإلهى قد صعد من هاتين العينين الذاهلتين المفتوحتين على رعب متجمد.

أسطورةُ صورة!

كـان صـديقى الـراحل إبـراهيم منـصور يـنفس عـن طاقـته الأدبـية المـسجونة فـى فـنون من السخرية الحادة التى برغم حدتها تفجر الضحك والبهجة لشدة طرافتها وجمال خيالها. حدث أن رأى صورة لجدى المباشر معلقـة فـى بـرواز علـى حائط فى شقتي، وكانت الصورة كلاسيكية عتيقة لأفـندى مهـيب فاخـر الملبس، فلم يصدق أنها صورة جدي، ويبدو أنه من فـرط ما قرأ لى من روايات عن المهمشين والدهماء اقتنع بأن هؤلاء هم أهلى وكل عشيرتي، فأشاع فى الوسط الثقافى أننى اشتريت هذه الصورة من على سور الأزبكية وعلقتها فى بيتى لأوحى لمن يراها أننى ابن ناس محترمين من علية القوم!! الطريف أن هذه الشائعة صادفت هوى لدى بعض الزملاء فما كـان مـن أحد الكتاب إلا أن ساقها فى سياق فنى روائى باعتبارها من الحقائق المؤسفة!!..

وذات يـوم لـيس بالبعـيد، وفـيما كـنت مـشغولا فـى كتابة سيناريو مسلـسل (الكومـي) المأخـوذ عـن ثلاثـية (الأمالـي)، خطـر لى أن أسافر إلى محافظة أسيوط الصعيدية وأراجع الأماكن التى دارت فيها أحداث الرواية داخل الجبل أو خارجه فلربما أتيح لنا التصوير فى الأماكن الطبيعية التى

يفترض أن المشاهد قد دارت فيها، وهكذا وجدتنى على محطة أسيوط أبحث عن سيارة مخصوصة أتنقل بها، فألقى الحظ الحسن فى طريقى بسائق غاية فى اللطف والأريحية والجدعنة كان لى المرشد والدليل والرفيق. وإذ كنا عائدين نخترق إحدى القرى فوجئت به يركن السيارة وينزل طالبا منى النزول، وأشار لى أن أتبعه، فتبعته، فإذا به يدخل بيتا جميلا، قال لى وهو يطرق باب الشقة المجاورة لباب الشارع إن البيت ملكه وأنه استخسر أن يمر عليه دون أن يلقى التحية ويطمئن على عياله إذ إنه- كسائق يركب الهواء- ليس يضمن أن يراهم بعد الآن. انفتح باب الشقة، على الجدار المواجه صافحت عينى صورة كلاسيكية عتيقة تلمع فى برواز كبير مذهب. تعطلت دقات قلبى كدت أقع، إنها صورة جدى المباشر، نفس الصورة الموجودة فى بيتي، عليها نفس توقيع المصور، تحتها نفس الكتابة بنفس الخط: فلان الفلانى بك الموظف بالدائرة السنية!!..

غرقت فى ذهول، سألت السائق: صورة من هذه؟ قال بكثير من التفاخر: صورة جدي. انفجرت فى الضحك وخيل لى أن فى الأمر مؤامرة من مقالب إبراهيم منصور. قلت للرجل : جدك من أين؟ قال: أمى بنت بنته!! قلت: كيف وأنا أعرف جميع أقاربى فى بلدتنا وكل البلاد؟! إن هذه الصورة صورة جدى أنا وهى موجودة فى بيتى وفى بيوت أقاربى وإخوتى أنا ابن ابنه!..

دبت فى البيت كله إيقاعات عاطفية، تهدجت أصوات وانفرجت أسارير واستيقظت حكايا. جاءت أم الرجل وأخذتنى بالأحضان، رددت أسماء الكثيرين من أقاربى وأعلام عائلتي، على صفحة وجهها العجوز

المتغضن رأيت الكثير من ظلال ملامحى وتقاطيع وجوه الكثيرين من أقاربي. حكت لى ما لم أكن قد عرفته أو سمعته من قبل على الإطلاق: كان لجدى أربع أخوات هن فلانة وفلانة وفلانة وفلانة، فلانة تزوجت من فلان فى البلدة الفلانية، وفلانة ماتت قبل الزواج، وفلانة تزوجت ابن عمها فى البلد، أما فلانة الصغرى فكانت ترافق جدى فى إحدى رحلاته مع أفندينا فى نهر النيل فتعرف عليها قبطان السفينة السلطانية فخطبها ثم تزوجها وكنت أنا بدورى صغرى بناتها..

طالت الحكاية وتفرعت كالأسطورة المتشابكة المتعاشقة وكنت من فرط الابتهاج قد انصرفت عن التركيز فى تفاصيلها الكثيرة المركبة إلا أننى فتنت غاية الافتتان بأن أضيفت إلى عائلتى وجوه أشعرتنى بكثير من الأنس والمودة لمجرد أننى سأعود لزيارة هذا البيت مرات كثيرة قادمة.

استحمام

أول مـا وعـيت المـرئيات مـن حوالى كانت ملامح أبى تخيفنى بصورة تـشاءمت مـنها أمـى وستي- أمها- وستى الأخرى- أم أبي- وكثيرون من أهـل الـدار الـكبيرة التـى يـسكنها أعمامى الكثار وعيالهم الأكثر، وكنت أتطلع إليهم حينما يتجمعون فى مندرتنا ليتسامروا بأخبار الحياة والناس وخلفـة العـيال، أسمعهـم يتـندرون بخوفـى مـن أبى مع أنه لم يشخط فى أبـدا، بـل يـتودد إلى بكـل رقـة، ويـشترى لى الكرملة والعسلية ويفتح لى أحـضانه كلمـا اقتربـت من الكنبة التى اعتاد الجلوس عليها معظم النهـار والـليل. ولم أكن قد تعلمت الكلام بعد لكى أقدر على شرح ما يعترينى من رعـب بمجـرد أن يقـع بصرى على ملامح أبي. ولشدة إحساسى بأن خوفى هـذا يقلـق الجمـيع ويدفع بعضهم أحيانا إلى قرصى فى غيظ أو دفعى باليد لولا أن أمى تتلقفنى فى الحال وتضمنى إلى صدرها حتى يهدأ رعبى وأكف عـن الصراخ والبكاء.. لشدة خوفى من إثارة غيظهم منى كنت أمتثل لحضن أبـي فأمكـث قاعـدا علـى حجره ممسكا بالهدية التى اشتراها لي، منكسا رأسـى فـى حجـرى حتـى لا أنظـر إلى وجـه أبـي، وكـثيرا مـا كان حنانه يتـسرب إلى جـسدى مـن حضنـه فأشعر بالتطامن وأنسى، فما إن يشرع فى

تقبيلي وتقترب ملامحه من عيني حتى أنتفض وأحاول الفلفصة وأرفس بقدمي حتى ييأس ويتركني في الأرض فأجرى إلى أمي أو ستي حيث تستقبلني الواحدة منهما استقبالا ضجرا مغمغما باللعن والتوبيخ. إلا أن أبي كان يشخط في الجميع منبها عليهم بعدم إيذائي ولو بالشتيمة، بل كان هو الوحيد الذي يغرق في الضحك مني كلما خفت منه وجريت.

هكذا كانوا يتندرون وهم يصفونني لي عندما كبرت قليلا وتأهبت لدخول المدرسة، ظنا منهم أن خوفي من ملامح أبي قد زال بعد أن وعيت وتعلمت الكلام وحفظت بعض قصار السور من القرآن الكريم، وقد غاب عن فطنتهم أن خوفي لا يزال قائما غير أني تعلمت كيف أداريه ولا أدعه يظهر بأي شكل، لقد أصبحت آنذاك قادرا على اكتشاف المفارقات الفادحة بين وجه أمي ووجه أبي. كانت أمي طفلة في الرابعة عشرة من عمرها حين أنجبتني، فيما كان أبي قد بلغ السبعين من عمره، ولما صار عمري ست سنوات صارت هي في العشرين وصار هو في السادسة والسبعين من عمره فازدادت المفارقات عمقا بين وجه صبوح غض الملامح متورد البشرة، ووجه تغضنت ملامحه وترهلت تقاطيعه فكثرت التجاعيد وازدادت عمقا ورهبة، كأن وجهه الكبير الشبيه بالشمامة الإسماعيلاوية أرض محروثة لتوها غاص المحراث في قلبها فشق في سطحها حفرا وقنوات نبتت على ضفافها غابات من الشعر الرمادي الخشن كالحلفاء كأعواد التيل، والخدان البارزان ربوتان عاليتان تطل من فوق كل ربوة عين واسعة كبئر الساقية، برموش طويلة مشرعة، يظهر من خلالها بريق مياه سماوية اللون في قلبها فص دائري من العقيق بلون عسلي، أنف طويل هابط لأسفل كمطب صناعي في شارع آهل بالحركة، يرتكز على شارب كثيف مهوش كاللحية

الجلـيدية المهوشـة تـشترك مـع الـشارب فى التمويه على حنك واسع جدا لكـنـه خـرب تماما من الأسنان فبدت اللحية كخرج العطار والحنك فتحته العليا. ذراعان طويلتان كفرعى شجرة الجزورين، ينتهيان بأصابع كأصابع المـذراة. قامـة فارعـة جـدا لدرجـة أنهـا تفرض عليها الانحناء قليلا كلما دلـف مـن باب، كما تفرض عليه النوم بساقين ملمومتين لا تجدان مساحة تنفـردان فـيهما سـواء علـى سرير أو كنبة أو مصطبة.. هذا العملاق المرعب كان إذا شخط فى أمى نشفها، وإذا نظر بعينيه القويتين إلى واحد من أبناء أعمامـى لخـبط غـزله، وإذا دخـل وسـط نبابـيت المتعاركين استطاع فى لمح البصر أن يوقفها إما بجلال الهيئة أو بقوة البدن يتلقف النبوت فى الهواء قـبل نـزوله على رأس أحد ويوبخ المتعاركين طالبا من كل واحد أن يشوف شغله ويفضها سيرة، فلا يسع الجميع إلا الامتثال والانصياع دون لجاجة.

خوفـى مـنه قـد ضـوعف، أصـبح خـوفا واعـيا ومحددا: الخوف مما تحـتويه هـذا الملامح المخـيفة من قدرة على البطش والإرعاب. كان السور الـذى يحجـز بينـى وبيـنه فى ارتفاع مستمر إلى أن عدت من المدرسة ذات يـوم فلـم أجـد أمـى ولا أبـى فـى الـدار، فـرميت بمخلاة الكتب واندفعت أبحـث عـنهما فـى أنحاء الدار غرفة غرفة. لكننى سمعت حركة وهمهمة فـى تقفيـصة الكنـيف، حـيث يحـتل المـرحاض مـساحة ضـئيلة، وأمامـه مـساحة طـويلة يكمـن تحتها خزان الغائط الذى نفحت عليه لنكسحه كل بـضعة أشـهر، ثـم نـردم على الفتحة ونستغل هذه المساحة فى الاستحمام حـيث نـضع فـوقها طـشت الغـسيل وحلـة المـياه ونـستحم. اقـتحمت هذه التقفيـصة لأفاجـأ بأمـى تتقـرفص عاريـة فـى قلـب الطـشت، وأبـى يشمر ذراعـيه ويـدعك ظهـرها بالليفة والصابونة، ويغرف بالكوز من حلة المياه

ويدلق فوق جسدها، ارتددت فى الحال خجلا مرعوبا، فصاح فى قائلا: تعال، فاقتربت منه منتفضا، فابتسم قائلا: اقلع هدومك وخش الطشت، وبسرعة قامت أمى ساترة نفسها بالبشكير ودخلت الكنيف لتلبس ثيابها، فيما نزلت أنا عاريا في قلب الطشت مستسلما ليده التى فوجئت بأنها فيض حنان.. وكان السور الحاجب بينى وبينه قد انهار تماما فى قلب الطشت فصرت أوحوح وأضحك ضحكات هستيرية ارتفعت بى إلى مقام النشوة العارمة.

السَّاقَـــة

لا أدرى منذ متى صرنا هكذا، فالوضع قديم قديم قديم، لدرجة أننى لم أعـد أذكـر شيئا مما كانت تعيه الطفولة قبله، تاريخ الوعى فى ذاكرتى يـبدأ مـنذ رأيتنـى فـى هـذا الوضع الذى نحن فيه من قهر وإذلال وسخرة وجـوع وعـرى وإنهـاك علـى طول الخط.. ما نبيت فيه نصبح فيه وإن كان المبيت والإصباح غير واضحين تماما فى مخيلتي، حيث لا أنا ولا أى واحد مـن هـذه الأعـداد الهـائلـة من متاعيس البشر يذكر متى كنا نياما ولا متى اسـتيقظنا إن كـنا قد تيقظنا بالفعل ذات لحظه من الزمن.. الواضح أننا فى حالة نوم كأنه الصحو، وفى صحو كأنه النوم.. لا نذكر أن شمسا قد طلعت فأضـاءت نهـارا ثـم أخذتـه واخـتفت بـه فى جنح الليل.. لا نذكر إلا ليلا طـويلا سـرمديا، كلاحـته تخـف قلـيلا فـى بعض الأوقات، ويصبح تحت أقدامـنا أحـيانا، فنمـشى فوق ظهره تنحل أقدامنا وبرته السوداء ثم جلده كلـه حتى تظهر عظامه البيضاء فتلمع فى الأفق وتبعث اللهب الحارق فى أوصـالنا فيـصعد مخترقـا أدمغتـنا الشقيانة واصلا إلى السماء حيث يتجمع مـتكورا حـول نفـسه ثـم مـا يلبث قرص اللهب حتى يصير فوقنا تماما ثم سرعان ما يصير خلفنا، ليكون الليل قد هزأ بأقدامنا، فانسرب من تحتها

إلى أفئدتـنا المقهورة التلفانة فنبدو بأعدادنا الهائلة كأننا مصدر الظلام فى هـذا الكـون الـشاسع، أحـيانا يألفـنا اللـيل فيرق علينا فيزيح خصل شعره الكثـيف عـن جبيـنه فنـرى قمرا فى السماء، لكنه سرعان ما يغدر بنا هو الآخـر إذ مـا نكـاد نعد فصوص برتقالته ونراه كرة مشابهة لقرص اللهب تمامـا إلا أنــه يبعث بدلا من اللهب ضوءا يعطينا القليل من الشعور بالأمن حتـى يغافلـنا ويختفـي، مـع ذلـك نغمض أعيننا فيما نحن نواصل السير. لـست أذكـر أن أرجلـنا تـوقفت عـن حركـة السير مطلقا وإن كنا مع ذلك لم نعـد نعـرف لـنا ثمـة مـن وجهــة محـددة، كذلك لا نعرف كم من الطريق قطعنا، ولا كم من المسافة والآماد سوف نمشيها إليها، طول الليل وحلكته العميقة الدامسة هما الحقيقة الوحيدة التى ندركها وتدركنا..

صورة صدئة مـن ذكـريات باهـتة أراهـا الآن ملقـاة وسـط حطـام من ذكـريات ميـتة علـى هيئـة نـاس يبدو أنهم كانوا ذات يوم يمتُّون إلىّ بصلة قربـى وثـيقة، لعلـهم مـن إخوتى وأصدقائى ورفاقي، أشلاء مشوهة لعلها بقايـا أهالينا الذين تساقطوا من الطابور منذ أزمنـة سالفة ولم نكن نستطيع أن نفعـل لهـم أى شـيء سـوى أن تـدوس فـوقهم غابـة مـن الأقدام الضالة همجـية منـسلكة فى ميكنـة المشى ثم نسيت أنـها تمشى مثلما نسيت حتى ذواتهـا وأسماءهـا وصـار الـواحد منهم ممثلا للكل، الواحد منهم فى مقام مغـرفة من حلة حساء تكفى للتعرف على كل الحساء.. بات هدفنا الأوحد فـى الحـياة أن نمـشي، نمـشى فحـسب، ولكن إلى أين، ومن ذا الذى حكم علـينا بالـسير فـى هـذا الطابـور الـذى لا أول لـه ولا آخر وسط هذا الظلام الكثـيف؟ فحتـى هـذا لم نعـد نذكـره، أو ربما اقتنع الجميع بعدم جدوى التذكر..

الصورة الصدئة يدب فيها الضوء شيئا فشيئا، تلوح لى بعض الملامح من بعيد جدا، مشاعرى تتهيج فجأة.. يا إلهي، إننى لأجد فى محاولات التذكر شغلا فيه بعض اللذة ينسينى ألم السير وانحناء الظهر وتسلخ الكتفين والجنبين من خيزرانة الخولى وهراوة الباشخولى وكرباج الناظر، كل واحد منهم لا يشعر بنفسه بمركزه بقوته بسلطته إلا حين يضربنا، من أراد أن يثبت لرئيسه ولنفسه أنه شايف شغله جيدا يأخذنا طريحة ضرب، أحيانا يضربنا أحدهم لمجرد أنه يروق له أن يضربنا، أن يرانا نصرخ ونتوجع، أن يرى النسوان يقعن فى عرضه بأن يعتقهن لله، أن يرى الفتيات يتمايصن تحت ضرباته متوجعات بأنغام أنثوية تشعلل هياجه فيلتذ بمواصلة ضربهن من أجل الاستماع لأصوات مختلفة من التوجع الأنثوي، الذى كثيرا ما يميل إلى الغنج دون أن تقصد الموجوعة، الألين مياصة منهن قد تنجو من الخيزرانة والكرباج معا..

ها هى ذى الصورة الصدئة يتفكك عنها بعض الصدأ: ها نحن الأنفار قد جئنا من مختلف بلاد البر المصرى كى نعمل فى وسية الأمير، أو لعله الباشا، أظنه محمد على ربما، وربما الأمير فؤاد أو الأمير شوكت أو الأمير زفت الطين، هو أمير والسلام، ولكن لا، لعله أكبر، أكبر بكثير جدا، ذلك أن وسيته التى نعمل فيها أنفارا تمتد طولا وعرضا بلا بداية ولا نهاية، والجرارات والترولات ذات القضبان الحديدية وتجرها الخيل تسرح فى أحشاء أراض شاسعة تتخللها عزب وكفور وقصور وبلدان وأجران مدروزة بأكوام القمح والدريس والأرز وأجولة القطن التى بلا حصر.. النفر منا يستأجره المقاول لثلاثة أشهر، تتجدد بتجدد المزروعات طبقا لما تحتاجه الزرعة من عمالة.. كان هذا هو المفترض تاريخيا، لكننا

لا نذكر متى ولا كيف انتفى العمل بهذا النظام فصرنا ملكية خاصة لأصحاب الوسية نعمل ما تطلبه منا الإدارة، نأكل ما يقدم إلينا من سكات، نلبس أسمالهم الخليعة، لا يحق لأحد أن يفتح فمه بأى شكوى أو تذمر. ممنوع حتى مجرد الزمزقة. إنما أنا متذكر متى أصبحت نفرا.. كنت صبيا فى التاسعة من عمره يروح المدرسة لكنه يسرح فى الإجازة الصيفية نفرا فى الوسية، أذكر أن مقاولا استأجرنى من أبى أيامذاك ودفع له عربونا ثم سلمنى إليه أحمل على كتفى مقطفا من الخوص فيه زوادتى لثلاثة أشهر: أرغفة خبز مشقوقة وآنية من الفخار فيها مش وخيار ولفت محدق.. هل دفع المقاول لأبى بقية أجرتي؟.. أظن أننى حتى الآن لم ألتق أحدا من أهلى بعد ذلك.. إن الصدأ المتراكم فوق الصورة قد أكل الكثير من معالمها فى مخيلتي.. هى تراني قابلتهم ونسيت؟ هل عدت إلى بلدتى ومدرستى ثم جئت إلى هذا الطابور فى إجازات صيفية متعددة؟ صدأ خشن ولزج فى آن.. أظن أننى لا بد أن أكون قد فعلت لأن شعورا كاليقين الغامض فى صدرى يشى بأننى تعلمت بالفعل فى مدرسة ربما مدارس، أغلب اليقين أنى قد حصلت على شهادة، ربما شهادات.. أغلب الظن كذلك أن شيئا من ذلك لم يحدث، وإلا فهل يعقل أن يكون ذلك بلا أثر فى حياتي؟! لو كان قد حدث ما رأيتنى واقفا هذه الوقفة التعيسة الذليلة فى هذا الطابور الأبدى فى هذه الحلكة..

الوجع فى ظهرى نبتت له أظافر جعلت تنخسنى فى قفاى وجنبي.. النغزات أرعشت بدني، سرعان ما فطنت إلى المنديل المحلاوى الذى أصر فيه طعامي: رغيفين من رغفان المطرحة مشقوقين، مع زرين من الخيار المحدق الذى ندلعه ونسميه بحمام البلاص، مع فحل بصل، مع باذنجانة

مسروقة من غيط الوسية، متورمة كالذنب الذى لا يغتفر، تمغمص بالي، يشغلنى هم التفكير فى كيفية أكلها دون أن يلحظنى أحد من الأنفار فيشى بى فى الحال حتى دون أن يفتح فمه بالكلام لأن الفضيحة فى الطابور - برغم الظلام - تعلن عن نفسها فى سهولة من شدة ارتباك المحيطين بها وخوفهم من أن سكوتهم عنها يعنى أنهم مشاركون فيها بالصمت المتواطئ.. الخبز فى منديلى المحلاوى قد نشف وتصلب، انهالت فوقه طرائح من العصى والهراوات والكرابيج، صار فتاتا مدببا يخزنى بقسوة كقرصة البقة كلما عدلت جسدى من عثرة وما أكثر العثرات..

بسّ بسّ بسّ: إن الجيشان السخن فى حرارة قلبى يبدو أنه ضخ فى مخيلتى سيولة شعورية غمرت الصورة الصدئة فحمضتها، حولتها من شبح كالعفريت إلى صورة واضحة، إلا أن التحميض لم يفلح فى استجلاء الصورة كاملة، بقع سوداء كثيرة لا تزال تفصل بين الكثير من الملامح بين الكثير من الأزمنة، لكن ما وضح من المعالم صار جليا: رأيت الآن كيفية الترتيب الذى ننزل به إلى خطوط الحقول ساعة العمل، نظام صارم لا يمكن لأحد اختراقه أو الخروج عليه أو الإفلات منه وإلا ديس بالأقدام ثم وورى التراب من تحتها، نتعاقب عليه إذ هى مندفعة ملتزمة بمواقعها فى الطابور، إلى أن تغيبه فى جوف الأرض ربما دون أن تدرى أو تشعر إلا بما يعترض عابر سبيل أثناء سيره من حصى أو زلطة سرعان ما يتجاوزها مواصلا سيره كأن شيئا لم يكن، فإن كانت الأرض جافة تحت الضحية تولت الرمال طمره أو انحسرت عنه مع الريح التى أتت به فإذا هو وليمة -غير دسمة مع الأسف- للذئاب والثعالب والضباع والنسور، فما أكثر آكلى الجيف حول جميع الطوابير..

النظام يحدده الخولى بحكم خبرته بقدرات الأنفار، ويراجعه الباشخولى بحكم تشككه الدائم فى ذمة الخولى أو فى شغله، ويحصيه الكاتب ما بين وقت وآخر ليتأكد أن كل نفر باق فى مطرحه، ويراجعه الباشكاتب ليسد جميع سبل الولْس والرشوة، ويعتمده الناظر، ويراقبه المفتش.. يتم تقسيم الأنفار إلى فرق، كل فرقة مكونة من خمسة وعشرين نفرا، الفرقة- سواء كان عملها نقاوة اللطع من شجيرات القطن، أو نقاوة الحشائش الشيطانية من شتلات الأرز، أو العزيق، أو جمع القطن- ستتملى فى خطوط طولية متجاورة فى تقسيمة كل أرض مزروعة، كل نفر يمسك خطا، فإذا نظرت إلى فرقة من خلفها وجدتها صفا متجاورا من ظهور محنية تعمل فى الأرض زاحفة ببطء شديد إلى الأمام.. يقضى النظام بأن يكون لكل فرقة قيِّدة، و«ساقة».. «القيدة» لا بد أن يكون أقوى نفر فى الفرقة من ناحية، ومن ناحية أخرى حريفا ومتودكا على هذا النوع أو ذاك من العمل، يليه من هو أقل قليلا فى الكفاءة، وهكذا فإن الثلاثة أو الأربعة الأنفار الأوائل فى الترتيب يشملهم لقب «القيدة» بقية الأنفار هم الساقة ولأنهم يتفاوتون فى القدرات والوعى والذكاء من جيد إلى متوسط إلى ضعيف فإن النفر الأخير فى صف الفرقة هو الذى يلصق به اللقب وحده كاللعنة، سيما والساقة هم فى العادة من ضعاف البنية قليلى الخبرة، إضافة إلى أن منهم الأعرج والأبرص والأعور وأبو كرش والأصفر أبو علة والعيان بكيفه والرخو المخنث والعيال الأشبه بالبلح الرامخ لا أمل فى أن يتودكوا على العمل أو حتى يسترجلوا.. تزحف الفرقة، كل فى خطه، يباشر عمله، حتى إذا ما وصل زحف الفرقة إلى نهاية الخط اصطفت الفرقة واقفة على الزُّراق لبرهة، فيتقدم القيدة ماشيا على الزُّراق

ليمسك بخط العودة، الخط المجاور لخط الساقة، فتمشى الفرقة وراءه لتصطف بجواره على نفس الترتيب فى خطوط العودة مثلما كانت فى خطوط الذهاب، على أن يتولى القيدة- نظرا لشطارته- مراجعة الخط الذى كان يشغله الساقة فى الذهاب، ليرى إن كان قد غفل عن لطع فى الشجيرات، أو تعويجا فى الشتلات، أو خشونة فى العزيق، أو بقايا قطن فى اللوزات المجموعة، فيعالج كل ذلك إلى جانب خطه فى طريق العودة.. كل الفرق اندمجت فى هذا النظام تنفذه حتى وهى نائمة على روحها، حتى وهى ماشية على السكك الزراعية فى طريقها إلى الحوض الذى ستتملى فى خطوطه، حتى وهى فى طريقها إلى ميدان السراى فى الوسية لتركب الجرارات أو الترولات القضبانية..

حلو! تذكرت: جميع الفرق انضمت إلى بعضها فى طابور خرافى الطول، يتقدمه قيدة وفى ذيله ساقة، اختفت الساقات بين القيدات لكن يسهل على أى خولى أو كاتب أنفار أن يميز الساقات داخل الطابور بمجرد رؤيته هزال الأجسام وتقزم القامات وظهور العاهات.. و.. ولكن.. منذ متى صرنا جميعا فى طابور واحد بمن فينا الخولى والباشخولى والكاتب والباشكاتب والناظر والمفتش وصاروا كالأنفار أو أشد بؤسا؟..

يلوح لى من خلل الصورة الصدئة أن فى الأمر سردابا لعله السر فى هذه المتاهة التى نحن فيها.. السرداب محفور فى الذاكرة وإن طمسه ركام من ذكريات أزمنة ضبابية.. يلوح لى أن زلزالا كونيا، أو ما أشبه، كان قد حدث، وبناء عليه تم تجميع الفرق كلها فى طابور واحد طويل أطول من الوادى الذى كان ذات يوم خصيبا، يساق بمسوقة واحدة غليظة فى أيد متعددة.. متأكد أنا أنه لم يكن طابورا نتكاتف فيه لإنجاز مهمة ما

مُهمـة، أو للـذهاب نحـو غاية نرتجيها أو يرتجيها أسيادنا، أو للوقوف فـي وجـه عـدو.. لا لم يكن هكذا بكل تأكيد، إنما كان ولا يزال طابور ذل وعـبودية.. فلم كان إذاً يا ترى؟.. أفصحى أيتها الصورة الصدئة.. آه.. هى عاجزة عن الإفصاح لكننى فى هذه البقعة منها أشعر أن هذا الصدأ المتراكم عليها إن هو إلا ركام من الشعور بالذلة تكاثف وازداد قتامة بعرق المذلة.. لكـن، لكنـى الآن أستطيع الـنفاذ إلى مـا تحـت الصدأ سالكا طريق الشعور يرشدنى إلى حقيقة ما جرى وكان.

طابور الذل بدأ بأن هطل الضرب فوق أبداننا من كل ناحية مع صيحة مدوية: اجمع! اجمع أنت وهو يا ابن الكلب! اجمع اجمع اجمع والضرب يمـزقنا، فهمـنا مـن رطانـة الناظـر والمفـتش ومـن بلـبلة الكاتب وغطرسة الباشـكاتب وشـخطه ونطـره ومـن هـرولة الخـولة وارتياعهم، أن سر هذا الزلزال هو- بالويم- أن أسيادنا قد تغيروا.. نعم هذا ما صرت متأكدا منه الآن.. قالـوا لـنا بالمفتـشر إن إدارة أسيادنا الجدد قد طلبت أن ترانا لتعيد حصرنا وتفيئتنا من جديد على أجور جديدة، وكان الغضب العارم الشرير يغلـى فـى صدور من يسوقوننا فيدلقونه فوق أبداننا، فيتضح لنا تلقائيا أن الـسيادة الجديـدة ربمـا تكون عازمة على تغييرهم ولربما زجوا بمعظمهم فى السجون نتيجة ما سوف يكتشفونه لا محالة من اختلاسات وتدليسات وخـيانات وفـساد ذمـم وفجور مما كنا نسمع عنه طوال السنين الفائتة بل ونـراه بأعيننا كل يوم ثم نتجاهله على أساس أن الساقة من أمثالنا لم يعد يلفـت نظـرهم ولا يـزعجهم حين يرون كبار مسئوليهم يسرقون وينهبون عينـى وعيـنك وكأن ذلك من حقهم ومن طبائع الأمور فى هذه الوسية التى لم يعد لها أو لنا ثمة من صاحب.

بقايا أثـر الـتعذيب هـى ذاكـرة التفاصـيل، والـبقع الثقـيلة فى هذه الـصورة الـصدئة هـو مـا تخثـر مـن دم الجـروح وأورام الهـراوات وشروخ الـسياط، مـن قـسوتـها سـكنت فى صميم الفؤاد، من هولها يعمد الذهن إلى نـسيان التفاصـيل كيلا يقلب فى المواجع، والمواجع طبقات فوق طبقات، قد وصلت بـى المواجـع إلى حـد استعذاب الألم حيث أشعر الآن أن ذاكرتي– ذاكـرتنا جمـيعا– أهـم مـن إذلال الـنفس فـى سبيل إراحة الجسد بنسيان وقائـع الـتعذيب حتـى لا يـتجدد الألم.. الآن أقـول: فليـتجدد، أهلا بـه، سـأنزع من لحم الجروح شرائح الألم، بأصابعى لا بأصابع الطبيب سأفعص الدمامل وأزيح أم القيح..

فى لهوجة وخوف واضطراب ساقونا فى الطريق الذى قيل إنـه يؤدى إلى السراية البعيدة التى تقيم فيها معية سادتنا الجدد، حيث تعين علينا أن نجعـل سـيدنا الجديد يشعر أن لديه رجالا أشداء يعتمد عليهم، يجب علـينـا أن نقـف أمامــه مشدودى القامات، وأن يدارى العمالقة منا بظلالهم علـى العمـيان والحـولان والبرصـان والعـرجان والعـيال الـرامخة، فلعـل سيادتـه ينعم علينا بالرضاء السامى، وهذا فى حد ذاتـه يكفى بل هو شرف عظيم لنا لم نكن لنستحقه لولا هذا الظرف السعيد..

مع ذلك مشينا فى هرولة همجية، مسوقة الخوف فوق ظهورنا كأننا حمـير الـسباخ، الطريق مقلقل يشرخ الأقدام، الجو خانق رغم انطفاء وجـه الشمس، أنـهـار من عرق ودموع وغبار، عجينة أغلقت العيون وليستـها مثل شـشم عـيون الأطفال ..تمر السنون ونحن مستمرون فى المشي، لا ندرى إن كانت معالم الطريق والأراضى كلها متشابهة إلى حد التطابق لدرجة أننا لا نـرى أى جديد يثبت أننا نتحرك بالفعل، أم أننا فى حقيقة الأمر نتحرك

فـى مطارحـنا دون أن نـتقدم خطوة واحدة على امتداد زمن يبدو موغلا فى القـدم.. الـشيء الوحـيد الـذى يـتغير هـو أبدانـنا التـى يـصيبها الـوهن والشيخوخة وصنوف من أمراض مجهولة تقصف الأعمار، أغلب الظن أنـها أمـراض إراديـة يزرعها البنى آدم منا فى نفسه ويغذيها حتى تنمو وتأكل جـسده علـى مهـل حتـى تخلص روحه من أسرها فى جسد مهان منحط لا يـستحق أن تـضحى الـروح فـى سبيله بأكثـر مـا فى طوقها من قدرة على احـتمال العـذاب، وهكـذا مـا يكـاد الواحد منا يدوخ حتى يتهاوى مسلما جسده لفرمة أقدام الطابور التى تصلبت وصارت كالفئوس الحديد..

قـيل لـنا إنـنا –حـسب الطـريق الموصـوف لقادتـنا – يتعين علينا أن نـدخل فى سرداب ضيق سوف يؤدى إلى حرم السراى لأننا لا يجدر بنا أن نـــدخل مـــن الـــبوابة الـــسيادية ذات المـــيدان الخـــاص بهـــا لاســـتقبال الأوتومبـيلات والكارتـات والحـناطير ناقلـة الـسادة الـنجُب. مـن هـذا الـسرداب نـدخل إلى الـساحة الخلفـية المستخدمة كأجران عريضة تفصلها الحديقـة عـن السراي.. اتضح أن الأدّلاء الموفدين من لدن السراى لإرشادنا إلى الطـريق كانوا من العميان، اتضح أيضا أنهم غير ملمين لا بجغرافيا ولا بـتاريخ ولا حتى بخبرة قصاصى الأثر فى الصحراء التى تحيط بنا.. كانوا عمـيانا بحـق فـضلا عـن جهلـهم وغطرسـتهم المـستمدة مـن قـوة مراكزهم المستمدة من ثقة الذين عينوهم أدلاء لنا..

مـع ذلـك فوجئـنا بالسرداب يقترب منا ونحن على وشك التساقط من الـيأس والإعياء.. ياً ربي! لا يمكن أن يكون هذا السرداب صالحا إلا لمرور الهواء فقط، لا يتسع لجسد مهما كان ضئيل الحجم، يتسع بالكثير لجسد عنـزة أو قـط أو كلـب صـغير، ناهـيك عن أنه يبدو كالمسدود مما يشى بأنـه

متعرج متلولب، ربما كان مجرد شرخ فى جدار ثم اتسع قليلا، أما أن يمر منه طابور منظم فى ترتيب معين فلا بد أن يكون طابورا من النمل المدرب على العبور من الشقوق.. يا ربي! ما كل هذه الإمكانية والمرونة فى بنى الإنسان؟ المستحيل قد حدث.. دخل الطابور من السرداب بنفس نظامه وترتيبه، صرنا أرق حجما من النمل الموصوف بالحرامي، لم يعد ثمة فرق بين نفر وخولى ومفتش، لا توجد مساحة يستقل بها أحد يحيط بها مركزه وتميزه، انضغط الجميع فى الطابور، لكنهم لسذاجتهم الفائقة -شأن كل عبدة المراكز والمناصب والكراسى والمواقع المتقدمة- وضعوا أنفسهم فى المكانات التى هم عليها كقادة؛ فبدلا من سيرهم بحذاء الطابور على الجنبين تقدموا على القيدة النفر، وضعوا أنفسهم فى الطابور بحسب مراكزهم القيادية: المفتش ومن ورائه الناظر من ورائه الباشكاتب من ورائه الكاتب فالباشخولى فالخولى ثم النفر القيدة..

هكذا دخلنا السرداب وراءهم، صرنا نملا يزحف ويتساند على جدارين خشنين باردين كالثلج اللاسع، من فوقنا خيمة السماء قد احتشدت بالطيور الجارحة، لا تنى تهاجمنا هابطة فوقنا تنقر فى رءوسنا وأكتافنا بسنابك حادة، تقتطع من الآذان والرقاب والعيون لقيمات خاطفة، لا يمنعها من المزمزة على مهل وهى واقفة فوق أكتافنا غارزة مخالبها فى رقابنا إلا صرخاتنا الفزعة المنتفضة التى تفزعها فتطير محلقة فوقنا لبرهة وجيزة ثم تعاود الهبوط علينا، وكان من الواضح أن روائح أبداننا النتنة قد أقنعت الجوارح بأننا مجرد جيف محشورة فى شرخ بين جدارين. سنون تمضى لا نعرف لها عددا، بل لا ندرى إن كانت سنين أم مجرد أيام وأسابيع وشهور؟ وأيا ما كان عددها فإن اليوم فيها

بمائـة عـام ممـا تعـدون.. وكان من الواضح أن السرداب لا تبدو لـه نهايـة، وأنـنا قد وقعنا فى شر أعمالنا أو بالأصح أعمال غيرنا، فلم نسمع ولم نقرأ فـى حياتـنا عـن مـنور مـسردب بهذا الضيق طوله مئات ألوف الملايين من الكـيلومترات إلا أن يكـون فـى أغلـب الظـن شـقا جبليا صخريا طبيعيا من عـصور الفـراعنة.. بعـض الـرجال الأشـد وحـشية من الحيوانات المفترسة كانـوا يفلحـون فـى القـبض على أحد النسور وتكتيفه والشروع فى تمزيقه والـتهامه بريشه، إلا أن أصواتا آمرة سرعان ما تأتى متقهقرة عائمة فوقنا تحملـها أجـنحة الجـوارح، تحـذرنا مـن التعـرض بالإيـذاء لأى مـن هذه الجـوارح لأنهـا تابعة لأولياء أمورنا الجدد من حدائقهم الخاصة ولها من ثمة هى الأخرى حصانتها..

بعد لأى وطلوع أرواح فوجئنا برجّة أدت إلى اصطدام رءوسنا ببعضها وانكفاء الصدور على الأقفية، حدث لنا ما يحدث للسيارات الزاحفة على الطـريق الـسريع حيـنما تقـف إحـدى الـسيارات فجأة فيتكرر الصدام من خلفهـا فـى جمـيع الـسيارات.. اتـضح أن القادة المتقدمين اصطدموا بحائط صـلب يـسد الـسرداب ولم يكـن مـرئيا لهـم، لعلـهم قـد أصـابهم العمـى والدوخان فلم يروا الجدار قبل الدخول فيه مباشرة..

يـا للبؤس والحيرة والضلال، ماذا نفعل؟ كيف نعود ؟ كيف يستدير الطابـور عائـدا يـتقدمه القـادة؟.. مـرغم أخـاك، صدر الأمر من القادة بـ: للخلـف در، صـار كـل واحـد منا يرددها بصوت عال فيما يحاول الدوران حـول نفـسه فيـتلقفها الواقف وراءه– الذى صار الآن أمامه– ويدور هاتفا بهـا.. وإلى أن تمت استدارة أفراد الطابور كله كان دهر طويل قد مضي، ثم صدر الأمر بالسير، وهكذا انقلب الوضع فى الطابور تماما.

صار الساقة هو القيدة، أصبح العميان والعوران والعرجان والبرصان، والحولان والرامخون العاجزون هم القادة..

صار القادة مجرد ساقة فى ذيل الطابور..

صار بعضنا يتلذذ بالوضع شامتا، صار الحكماء يضحكون فى مرارة أسيفة، صار المطيباتية ينفسون عن شماتتهم وحقدهم وسخريتهم من الأمر برمته بطمأنة الطابور بأنه وضع مؤقت تفرضه أزمة طارئة.. لكن واحسرتاه علينا جميعا: الأزمة طال مداها، اتسعت وتعقدت.. قفلنا راجعين تحت قيادة الساقة.. يا للعجب، السرداب الذى دخلناه فى سنين رجعناه في دهور، أبدا ما صدقنا أننا مشينا كل هذه المسافة الخرافية دون أن نحقق شيئا على الإطلاق، ورجعناها كلها إلى غير غاية..

غير أن اللغز الأعقد هو هذا الذى حدث: فحينما دخلنا السرداب منذ دهور مضت كان مدخله برغم العناء لا يزال ماثلا فى الأذهان، والمفترض- طبقا لطبائع الأمور- أننا حين نرتد عائدين لا بد أن يعيدنا إلى الخلاء الصحراوى الذى وصلنا إليه قادمين من الواحة بحثا عن مدخل السرداب هذا، ولكن ما حدث أننا حينما خرجت فلولنا من جوف السرداب كانت طلائعنا وقادتنا الساقة قد امتدوا أمامنا فى خط عبارة عن مدق من أرض صلبة ممدود كالجسر فى قلب محيط مائى لا نهائي، المياه من الجانبين ومن الأمام راقدة ساكنة سكنا مريبا كالخديعة، المدق فيما تشعر به أقدامنا يبدو كأنه سنام جبل عظيم غمرته المياه وبقي منه هذا الشريط الضيق المرتفع لم يطاله الماء وها هو ذا يلمع من جوف الأفق البعيد حيث تنكفئ السماء على الماء فيتعاشقان وتبدو مقدمة طابورنا كأنها غاطسة فى خط التعاشق فكأنها أسراب من بعوض بين فكى حوت كونى

خـرافي. ولم يكـن المـدق الـصخرى ليتـسع إلا لقدم واحدة، فعلى الواحد أن يحـذر التـساند على غيره، وأن يربط جأشه وينقل القدم بعد القدم فى ترو وهـدوء أعـصاب وإلا فقد توازنـه وهوى فى قلب هذا الماء الذى لا ينى يلفظ أجنحة من لهب برتقالى داكن. وكنا نـرى المتقدمين لا يلبثون حتى يختـفوا تماما كـأن خـط الأفـق قـد ابـتلعهم بـين المـاء والـسماء، ولم نـكن نملك إلا مواصلة الارتجاف زحفا على هذا الصراط إلى مصير غير معلوم.

شريعة رزق كريم

كـان الـشيخ عـبد المقـصود أبو إسماعين مجاورا فى الأزهر الشريف، لكـنـه لـيس يملـك أى شيء على الإطلاق سوى الجلباب الذى يرتديه صيفا وشـتاء ويغسله بيديه كل خميس ويحتجز نفسه فى المسكن الداخلى حتى يجـف قـرب صلاة الجمعـة، لا يتركـه إلا حيـنما يتعطف عليه واحد من تجـار حـى الحسين الطيبين الذين يلتقيهم فى غدوه ورواحه طوال النهار وشـطرا كـبيرا مـن اللـيل فيمنحه جلبابا نصف قديم أو جديد أحيانا، مع ذلـك لا يفـرط فـى الجلباب القديم مهما تهرأ وساءت حاله، يسهر فيفصل مـنه لباسـا أو حتـى مـنديلا يقـوم هو بتخييطه ورفيه بإبرة وخيط يحتفظ بهمـا فـى مـتاعه الخـاص فـى الحجـرة المـشتركة، وهو عبارة عن صندوق صغير فيه خرقه وأغراضه ومصحف وكتاب دلائل الخيرات وكتاب تفسير الأحلام لابن سيرين.

الـشيخ عبد المقصود وصل إلى المجاورة فى الأزهر الشريف بعد رحلة شاقة وعسيرة طولها مئات ألوف الأميال والأصبحة الكئيبة والليالى السود سيرا على قدميه من مكان إلى مكان من بلد إلى بلد، لم يعرف الركوب طول حياته مطلقا، إنه لا يملك ثمن جرعة ماء بله أن يدفع ثمنا فى ركوبة. من

كُتَّاب أبيه فى قريتنا البعيدة فى برارى شمال الدلتا إلى المعهد الدينى فى الجامع الأحمدى بطنطا إلى الأزهر الشريف فى القاهرة لم يجد من ينفق عليه مليما واحدا أو حتى يتعطف عليه بكلمة تشجيع أو عطف. فى الإجازات الصيفية فى زمن الصبا كان يسرح فى الغيطان للتصييف، والتصييف فى قريتنا معناه التجول فى الحقول بعد حصادها لالتقاط ما سقط من أيدى الحاصدين أو احتجزته شقوق الأرض من سنبلات قمح أو فول أو ذرة أو شعيرات قطن تخلفت بين ألسنة اللوزات الجافة، ما يجمعه الشقى طوال النهار قد يتحول إلى قليل من أرغفة خبز أو ملاليم تنفع فى الزنقة، ولا الحوجة للاشتغال نفرا زراعيا باليومية يتحكم فيه الأنذال ويسخرون من تشعلقه بحبال العلم والحلم بوسام الجبة والعمامة وهما- فى نظرهم- بعيدان عن شوارب تعيس مثله..

درّب الشيخ عبد المقصود نفسه على الاستغناء تدريبا ليس يفلح فيه إلا الكبار من أقطاب الصوفية الزهاد، يكفيه فى العام جلباب وقميص ولباس وصرمة قديمة، يكفيه فى اليوم طقة واحدة يأكلها فى عز الليل لكى ينتهز دماغه فرصة امتلاء بطنه فيستغرق فى النوم العميق، أما عند الصحو فى الصباح فالأمور مقضية كيفما اتفق بكوب ماء، شفطة شاى، تمرة، كسرة من تلال خبز مقدد مما يمنح إليه من زوار القرافة يوم الخميس، لقد وطن النفس على أنه إن حضر الخبز فإن الملح أو أى غموس يكون ضربا من الدلع الماسخ. وهكذا حيث توج الله مشواره الذى أصر عليه بالانتظام فى الدراسة بالأزهر الشريف لم تستطع مغريات المدنية أن تلعب برأسه وتجره إلى الدناءة، فمن الدناءة فى رأيه أن يترك الإنسان نفسه للشهوات تقوده فتصرفه عن العلم عن الكرامة ولا بد فى النهاية أن

تـورده موارد التهلكة، ومن الذل فى رأيه أن يطلب الإنسان رزقه من عبد مـثله فـرزق الإنـسان يـتكفل بـه الخالـق، فرزقكم فى السماء وما توعدون هكـذا قـال سـبحانه وتعـالى فـى كـتابه الكـريم، أما الرزق الكريم فهو ما يجيـئك دونمـا هـدر لكـرامتك أو جـرح لإنـسانيتك.. هكـذا كانت تجيئه الهدوم وقت احتياجه إليها دون أن يطلبها، كان هناك دائما من لا يرضيه عـريه الوشيك فيـناديه فـى السر ويعطيه المنحة الإلهية جلابيب مخيطة جاهزة أو أقمشة ومعها ثمن خياطتها.

فـى جـوار الأزهـر الـشريف والإمـام الحـسين كانت تصادفه الولائم المـبذولة لأهـل الله بالمجـان مـا علـيك إلا أن تحـنود علـى مائـدة مـن موائد الـرحمن تلـك فـتجلس وتـسمى باسم الله الرحمن الرحيم وتأكل حتى تملأ بطـنك ممـا لـذ وطـاب، إلا أنـه لم يكـن يحـود، عقدة الذل والكرامة تشله تمامـا، يـروح ويجـيء عـدة مرات يبصبص للأكل والآكلين كالذئب يبحث بـين الآكلين عن أحد يعرفه، فإن رآه ملتهيا فى الأكل سوف ينبهه بشكل شـرعي، سيقول لـه مـن علـى الـبعد بـصوت عال: «السلام عليكم! مساء الخـير يـا فـلان!». عـندئذ سيرفع فلان رأسه عن الأكل ليرى من ذا الذى نـاداه، ومـن قبـيل الـذوق والمجاملـة الاعتيادية سيقول له: «أهلا وسهلا تفـضل الأكـل يـا رجـل!»، هكذا يكون قد تلقى التأشيرة على جواز المرور فيـندس بين المناكب والأرداف ويتصرف، وإنه لخبير بكيفية التعامل مع ما تحتويه المائدة. الإكادة أنه كلما ألقى السلام على أحد يلتحق بمائدة من مـوائد الـرحمن يطـير سـلامه فـى الهـواء بـددا تحـت قرع الملاعق وطحن الأسـنان وخـوار البـشر وهـم يأكلـون فى حالة حيوانية صرفة، وحتى إن سمـع مـن ناداه صوت ندائه فإنه يكتفى بالتلويح له بالتحية بيد متشنجة

ملـوثة دون أن ينظـر إلـيه. ولقـد أنفـق الـشيخ عـبد المقـصود زمـنا طـويلا وتجارب عدة حتى تأكد من حقيقة أنه لا سلام على طعام، أن الإنسان متى غـرق فى بحر الأكل صعب انتشاله إلا أن يطفو لوحده على سطح التخمة.. فامتـنع عـن إلقـاء الـسلام علـى أى مائدة بل اعتاد الموقف المضاد مع ما فى إعـادة ضـبط الـنفس علـى الـسلوك المـضاد مـن عناء وتعذيب للنفس يصعب احـتماله إلا علـى مـثل هـذه النفس اللوامة الرنانـة المقفولة على محفوظات شـاخت وانتهـى زمـنها وبطـل مفعـولها فباتت أشبه بنورج تجره البغال وسـط جرن ممتلئ بماكينات كهربائية حديثة تتلقى أعواد القمح بسنابلها فيـتدفق الحـب مـن فـرجة والـتبن من فرجة أخرى بحيث تنجز محصول عشرة أفدنة فى سويعات قليلة..

اعـتاد الشيخ عبد المقصود أن يقطع على نفسه الطريق عند رؤيته لأية مائـدة فيهـرب إلى طـريق جـانبي. وحـيث كـان بعض زملائه «الملحلحين» يتقـربون إلى زملائهـم الكـبار المـشهورين خـارج نطاق الجامع الأزهر بين العامـة والـتجار، أولـئك الـذين يدعـونهم لإحـياء الختمات وفاء لنذور أو تكفيرا عـن ذنوب، فيعطف الشيخ المدعو على زميلين يختارهما ليشاركاه الـليلة حـيث يجلـس ثلاثـتهم فـى حجـرة استقبال فـى بـيت محترم من صبيحة ربنا إلى ما يشاء الله من الليل لكي يختموا قراءة القرآن كله لإضفاء الـبركات علـى هذا المكان وأهله، خلال ذلك ينالهم ثلاث وجبات سمينات من لحم ضأن أو إوز أو بط مع أناجر الفتة والمرق، وحلوى وفاكهة لم يسمع أحـد مـنهم باسمها مـن قبل، فوق ذلك كله يأخذون نقودا، بضعة قروش يـوزعها كـبيرهم علـيهم بغـير عدل ولا قسطاس إنما لا بأس في ذلك. من هنا يتلحلح الزملاء المتودكون فى التودد إلى أمثال هؤلاء الشيوخ لينالوا من

العز جانبا بعد طول جفاف وحرقة قلب بجراية الأزهر التى برغم شحها غير دائمة.. إلا الشيخ عبد المقصود لم يفلح فى ذلك أبدا، لقد حاول مرارا وتكرارا فى الواقع لكنه يفاجأ دائما بشيء حاد وصلب كبقايا جذور الحطب والحلفاء والنباتات الشيطانية يقف فى حلقه إن داست فوقه الكلمات مات، فيكف فى الحال عن محاولة المجاملة ولا يبقى منتصبا فى ذهنه ماثلا فى بصيرته إلا كونه يتودد من أجل الاسترزاق والمنفعة لا من أجل الحب والإنسانية، سيما وأنه على يقين بأن محاولته للتودد حتى وإن كانت صادقة وخالصة لوجه الله والإنسانية فإن المتودد إليه لن يتلقاها بمثل هذا القبول؛ إذ إن نفسه التى فسدت باتت تلون كل مجاملة تأتيه وتفسرها بأنها استدرار للعطف والتربح من العلاقات.. وهكذا قامت بينه وجمهرة الزملاء سدود وإن كانت وهمية إلا أنها أشد فاعلية فى عزله مما لو كانت سدودا حقيقة كسد مأرب.

على أن جوعا وحشيا، ربما بأثر رجعي، قد انقض على الشيخ عبد المقصود ذات يوم حار عصيب، لعله كان يوم موسم شعبي، أغلب ظنه أنه احتفال بيوم عاشوراء، وهو تقليد رسخه الفاطميون فى مصر حيث يحتفل المسلمون المصريون بذبح الذبائح وطبخ نوع من الحلوى تسمى بالعاشورة مصنوعة من اللبن والأرز المدشوش، ولا بد لكل بيت مسلم أن يطبخ لحما فى ذلك اليوم.. يومها امتلأ حى الأزهر والحسين بروائح الشواء الشهية منبعثة ليس من المطاعم ومحلات الكباب فحسب بل من جميع نوافذ البيوت فى الباطلية والغورية والعطوف وخان الخليلى وكفر الطماعين، الفضاء كله شواء فى شواء يستفز فى الإنسان غريزة الافتراس المقموعة فيه مؤقتا، تجعل الأسنان تضرس وتكز واللعاب يسيل والبطون تعوي، الناس

علـى أرصـفة المطـاعم ينهـشون فـى شرايح وريَش، الأسياخ طالعة من قلب الـنيران تغـرى الأكـولين الموسـرين وتكـيد للـسابلة المعـدمين. لكـن حتـى الـسابلة المعـدمين فى هذا اليوم لم يكونوا معدمين، يكفى أن يفوت الواحد مـنهم علـى بـاب أى مـسجد فـيمد يـده لمـن يوزعـون أرغفـة خبز محشوة بـاللحم، وللمتـسول أن يكـرر مـد يـده عند كل مسجد حتى يشبع ويدخر للغـد أو لذويـه مـن العجـزة والمساكين. لكن كيف يتأتى لشيخ أزهرى على وشـك أن ينال شهادة العالية أن يمد يده كالمتسولين ليأخذ رغيفا حتى وإن كـان محـشوا بالجواهـر؟ إنـه لمن العار أن يفعل، ماذا يكون منظره فى نظر أهـل بلدتـه إن جاءت الطوبة فى المعطوبة ورآه أحد منهم فنشر الخبر فى بلدته؟! سيقولون طبعا وهل كان لمتسول مثله أن يحمل شرف العلم ووسام الجـبة والعمامـة؟ بذلك تضيع رحلته هباء، سيعود حاملا شهادة دراسية علـيا تـنوء بحملـها شخصية وضيعة مهزوزة فى نظر القوم مخصوما منها الالتـزام والتقديـر والمصداقية فكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا وكأنك يا أبا زيت ما غذيت.. لا.. لا.. لا.. ديك أم هذه البطن القذرة، كل هذا المهرجان الفـاتح للـشهية إن هـو إلا مهـرجان للحيوانـية البدائـية المفترسة قبل أن يتحـضر الإنـسان بالـدين والعلـم ويعـرف أنـه يأكـل ليعيش وليس يعيش لـيأكل.. إن هـى إلا سـويعات قلـيلة ويـنفض هـذا المهـرجان كأن لم يكن.. مهمـة الـشيخ عـبد المقصود الآن أن يهـرب مـن هـذه الحمـى الافتراسـية الـصاخبة، آه لو ينام، النوم الآن حلم حياته، لن ينسيه ألم الجوع وقرص الـبطن وعـواء المـصارين إلا الـنوم، النوم بعمق يقارب الموت، ولكن كيف؟ ذلـك شـبه مـستحيل، فالحجـرة المـشتركة التـى يبـيت فـيها مـع زميلين أحـدهما من اليمن والآخر من الصومال تفح صهدا وزخما، زميلاه ثرثاران

كماكينتين للحفظ والتسميع لا تكفان عن إصدار الصرير والقرقعة، النوم فيها غير متاح فى عز الليل فما بالك بجهارة الضحى؟ آه، يا للإلهام، يا لها من فكرة طيبة: الصعود إلى الشرفة الثالثة من المئذنة البحرية، إنها ملقف هواء لا مثيل له فى مصر بأكملها، على الأرض الرطبة يتمدد متوسدا إحدى ذراعيه ليغيب فى النوم العميق قبل أن يكمل قراءة الفاتحة، وعصف الهواء العبقرى سيرفعه إلى السموات السبع ينسيه كافة الشهوات اللعينة..

لحظت ذك كان ثلاثة من زملائه الموسرين يريدون الاحتفال بموسم عاشوراء كبقية القوم، قرروا الاشتراك فى الإنفاق على غدوة مخصوصة محترمة تليق بهذه المناسبة المفترجة، ذهبوا إلى جزار، قطع لهم ثلاثة أرطال من الضأن المشفى، خرطها فوق ورقة سميكة مفروشة بالبقدونس، خرط فوقها رطلا من الطماطم ومثله من شرائح البصل، والقليل من الفلفل والمشهيات العطرية، ثم طوى أطراف الورقة فوقها بإحكام دفعوا بها إلى الفرن العمومى حتى استوت فسحبوها، سحبوا كذلك تلا من أرغفة الخبز البلدى الساخن وقرطاسا من الطرشي.. عبأوا كل ذلك فى جبة كشكارة الأسمنت، وقفوا يتشاورون فى أمر المكان الذى يأكلون فيه هذه الوليمة فى أمان بحيث يضمنون أن طفيليا من الزملاء لن يرمى جثته عليهم ويشاركهم فى أكلها، هنا طقت الفكرة العبقرية فى دماغ أحدهم فنفذوها على الفور .. صعدوا بالوليمة إلى الشرفة الثالثة من المئذنة البحرية حيث لا أحد على الإطلاق يتوقع وجودهم فيها أو حتى يشم رائحتهم، من شدة اللهف فرشوا كيفما اتفق قرب فتحة السلم، شرعوا يأكلون..

الشيخ عبد المقصود أصابه ذهول، لقد هرب من مهرجان الافتراس الشهى فإذا به يلاحقه فوق المئذنة حقيقة لا مجازا! ! إن فى الأمر لتحد واضح يريد أن يعذبه ويهزم كبرياءه. راح فى رقدته فى الجانب البحرى ينصت إلى عملية المضغ والهمهمة فيما ينتفض جسده خوفا أو جوعا ليس يدري.. غصبا عنه تنحنح، إحم.. فزع الإخوة الثلاثة الآكلون، توقفوا عن المضغ فاستمعوا إلى صوت تنفس خشن على الجانب الآخر للشرفة.. قام ثلاثتهم، لفوا، فوجئوا بالراقد يتوسد ذراعه وينتفض من شدة الإعياء، ارتفعت صيحاتهم المندهشة: «الشيخ عبد المقصود؟ يا للنصيب الغلاب! قم يا شيخ! تعال.. اللقمة ليست تنادى آكلاها فحسب بل وتذهب إليه فى عقر داره أحيانا!».

شدوه من ذراعه ليقف، أوسعوا له مكانا بينهم، حاولوا استئناف الشهية لكن الضحك الهستيرى عطلهم تماما، مع أنهم كفوا عن النظر إلى بعضهم البعض درءا لمسببات الضحك إلا أن اللقيمات كانت تكاد تنطرد خارج الأفواه المقهورة على الضحك الهستيري، الضحك من أنفسهم ربما، مما دبروا له وأحاطوه بالسرية والكتمان حيث لا تدبير إلا ما قد وضعه المدبر الأعظم، ولكن الشيخ عبد المقصود كان هو الوحيد الذى قد راح يأكل بشهية فائقة، فلقد رأى أن الأكل يعتبر أكله هو، أن هذه الوليمة قد أعدت بإلهام من الله بواسطة هؤلاء الزملاء لكى تجيء لحد عنده فى هذا المكان البعيد فيما بين السماء والأرض، كان كأنه صاحب الوليمة وهم الضيوف..

إلا أنه بعد أن شبع تماما ربما لأول مرة فى حياته، ملس بيده على بطنه، وإشراقة طازجة سطعت على وجهه وشت بأنه استوعب درسا

عميقا جدا، فبدا كأنه يستدرك على نفسه إذ يقول فى نبرة امتنان وورع:
«ولكن مع ذلك يا إخوان فإن الرزق لا بد له من سعى ولو بالنحنحة!».
ضحكوا وأومأوا برءوسهم مؤيدين، ثم حملقوا فيه فى استعبار.

ليلة السلعوة

كلبة يزيد ابن بهانة الهفتانة كانت على علاقة طيبة بأهل بلدتنا أجمعين. فبرغم كثرة الكلاب فى بلدتنا فإن كلبا واحدا منها لم يحظ بشيء من شهرة ونجومية كلبة يزيد البرلسى الشهير بابن بهانة ولعل كلبته هى التى أغدقت عليه الشهرة فى بلدتنا. الكل يعطف عليها، وهى تبادل الجميع ودا بود، لا ترى رجلا أو امرأة أو طفلا يبعد عن الديار ولو قليلا إلا ورافقته حت تطمئن إلى سلامة وصوله إلى حيث كان يريد فترتد عائدة، ربما خلف شخص آخر عائد إلى البلدة..

الحاج عزوز ابن عمي- عمدة البلدة- كان من فرط حبه لها يستضيفها كثيرا فى شرفة بيته المطلة على مصرف عريض عتيق، يلقى أمامها ما تخلف من موائده من بقايا طعام دسم حتى ربربت الكلبة صارت كالمهرة، لا ينى يردد كلما لاحظ أننى أحسدها على هذا النعيم: «كلبة جدعة يا بو رمضان مش خسارة فيها».

كل أهل البلدة يبصمون بالعشرة على أن كلبة يزيد أجدع من ناس كثيرين، يقصدون بهذه الغمزة نفرا من عائلات شبعوا بعد جوع واشتروا أرضا زراعية بنوا فوقها ما يشبه القصور والفيلات وأصابهم مرض الكبر

والأنفة أو كما قال الحاج عزوز يريدون أن يشموا أنفاسهم التى تقطعت طوال سنين البؤس التى كانوا فيها تملية وأجرية باليومية. كانوا يثبتون أن كلبة يزيد ابن بهانة الهفتانة أجدع من آبائهم، فبرغم قسوتهم وغثاثتهم كانت تهب لملاقاة الواحد منهم بحفاوة إذا لمحته قادما إلى البلدة وترافقه برقصة الترحيب الواجبة فلا يكتفى بأن ينهرها لترجع، إنما قد يغافلها ويشوطها ببوز حذائه في مقتل، وقد يهوى بنبوت فوق رأسها أو فى قدميها، فتعوى بالتياع وهى ترتد مهيضة لترتمى فى أقرب مكان تواصل الولولة والعويل، عندئذ لا يتورع الحاج عزوز عن شتمه بأغلظ الألفاظ، فلا يرد عليه المشتوم إلا بعبارة مغمغمة بنبرة احتجاج: «هى يعنى كانت كلبتكم؟!». لكنه يقولها برعشه وبسرعة فيما هو يركض متأهبا للجرى إذ إنه على يقين من أن الحاج عزوز قد يعبر حاجز الشرفة مهرولا وراءه بالعصا ولا بد أن يدركه أو تدركه العصا التى هو بارع فى قذفها وراء من لا تطاله يده. يفعل ذلك وأكثر ليس لأنه عمدة البلدة فحسب وإنما لأنه- دون أهل بلدتنا كلهم- قد أبيح له - حتى قبل العمودية - أن يشتم التخين فى البلد ويقرعه كيفما شاء، ربما بشرعية خفة الظل القوية الكاسحة، ربما لرجاحة عقله وحكمة تصرفاته وقدرته على الظهور فى أزمات الناس بمظهر مشرف يدعو للامتنان، كل ضباط المباحث والمآمير في المحافظة يحبونه لجديته في خدمة الأمن وسلاسته فى حل مشاكل البلدة قبل وصولها إلى قسم الشرطة. وقد احتاج لأن أرافقه دائما فى كل مشوار وكل مجلس، ذلك أننى مدرس ابتدائى فى مدرسة المركز وهى على مقربة من بلدتنا، وقريب منه في السن، وأقرب أولاد عمومتى إليه فى الطبع والمزاج المرح، كما أن بيتى فى مواجهة بيته. وإنه

ليسعدنى ذلك بالطبع وينعش كبريائى وشعورى بالعزوة، لكن المأزق الذى أستسخفه منه أنه يشركنى معه فى مؤامراته العبثية وفصوله الضاحكة ضد أولئك الذين زاحموه فى هذا الخلاء الأخضر بالبناية مثله على الأرض الزراعية بيوتا تكاد تكون أفخم من بيته!.. يطيب له أن يهزر معهم هزارا ثقيلا وفى منتهى القسوة أحيانا، مبررا ذلك بأنهم طائفة من ناس ليس يقوى على بلعهم، لحمهم مزز، كريه الرائحة، إنهم شبعة بعد جوعة، لزقوا فى السعودية والإمارات وليبيا، استوطن عيالهم العراق سنين طويلة، جمعوا أموالا طائلة، عرفوا الدولار والإسترليني، والفيديو والدش والمحمول ومن قبله تليفون السيارة، كانوا أنصاف وأرباع قوالب أيام كانت عائلتنا مرهوبة الجانب في المنطقة، وهى لا تزال كذلك بفضل الله ولكن هؤلاء الأوباش الأثرياء أصبحوا على وش الدنيا فى الصدارة كأنهم الباشوات الجدد!!. يقول هذا من قبيل السخرية والمقلتة لا من قبيل الحقد، يقوله فى وجه التخين منهم فلا يسع هذا التخين إلا الضحك مسرورا بعمق لمجرد أن سخرية الحاج عزوز حسبته بين الأثرياء، وقد يواجهه أحدهم -فى لطف وأريحية - مذكرا إياه بأنه - الحاج عزوز - هو الآخر سافر إلى الخليج كخبير للماشية فى سلطنة عمان ليتمكن من بناء هذا البيت الكبير الأبهة بشرفات دائرية تحيطه من جميع الجهات، وأنه أول من تجرأ بالبناء على الأرض الزراعية فى السبعينيات أيام اليغمة الانفتاحية، وأنه هو الذى شجعنى على البناء فى مواجهته على شريحة من أرضنا بعد عودتى من إعارة لى فى السعودية.. فيعلق الحاج عزوز: «ليتنى ما بنيت! لو أعلم أنكم ستقرفونى فى عيشتى كنت بقيت فى البيت القديم! أصبحت أكره هذا البيت بسببكم!».

مع ذلك تعتريه سعادة فائقة وهو يضطجع فى هذه الشرفة المطلة على المصرف، فى الهزيع المتأخر من الليل، يرقب البلدة العتيقة فى مواجهته علـى الجانب الآخر من المصرف، سيما والجسر العتيق الذى يعبره الناس والماشية بينه وباب بيته خطوات قليلة فيرى الداخل إلى البلدة والخارج منها على السواء. على أن البهجة كثيرا ما كانت تجيئه من نفس الأبواب التى سبق أن ضايقه وجودها وانفتاحها على البهلي، لقد تعفرت ذات يوم علـى أخيه لأنه باع جزءا من نصيبه فى الأرض ليزيد البرلسى ابن بهانة الهفتانة، الخواص، الذى سافر إلى العراق واشتغل فى بيع الملابس الجاهزة المهربة من تركيا بغزارة، ثم عاد بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ليجد فى انتظاره فى البنك الأهلى آلافا مؤلفة من الدولارات كان يرسلها أولا بأول، ترك بيته القديم لأمه وأخواته البنات، أقام بجوارنا بيتا محندقا من ثلاثة طوابق بات فرجة للناس من حلاوة شكله وزخارفه وألوانه الزاهية، جعل من الطابق الأرضى كله دكان بقالة أسماه سوبر ماركت البرلسي، تسطع فيه وحواليه أضواء النيون تبهر القرويين تذيقهم نكهة المدنية تجلبهم للصخب والشراء والاستماع إلى شرائط الكاسيت التى يبيعها ضمن مئات من السلع، من المواد الغذائية والمعلبات والعصائر إلى الخردوات وكروت المحمول والمحمول نفسه وتأجير توصيلات لقنوات فضائية، وأطباق من الصينى والميلامين وأطقم فضيات لزوم تجهيز العرائس، وثلاجات وتليفزيونات وأجهزة فيديو وبوتاجازات ومطابخ، وساعات وإكسسوارات للزينة، وسنترال دولى يبيع المكالمات لأهل البلدة والعزب المجاورة إذ إن لهم أبناء مهاجرين إلى ألمانيا وفرنسا وسويسرا وجنوب أفريقيا ولندن وهولندا وكندا والبرازيل وجواتيمالا والمكسيك،

منهم الأطباء والمهندسون والمحامون والمحاسبون وعلماء ذرة وكيمياء وأساتذة في الجامعة، منهم كذلك بائعو جرائد وغاسلو أطباق وفراشون وصنايعية وأصحاب مقاه وملاه، كان سوبر ماركت البرلسى مدينة وحده أشاعت الأنس من حولنا. وكان الحاج عزوز أشد الناس ابتهاجا بهذا الصخب المؤنس حيث يتاح له أن يكلم من يشاء فى أى مكان من العالم وأن يطلب المأكولات الطازجة والمعلبات والمياه الغازية وقتما يريد فتجيئه لحد عنده مع مخصوص يحملها على دراجة، إلا أن داء السخرية ينقح عليه دائما، فبعد أن ينهى مكالمة دولية مع ابنته المقيمة مع زوجها طبيب الأطفال فى المكسيك، وشرب علبة مياه غازية مثلجة أخذ يلوح بالعود المجوف الذى امتنع عن استخدامه فى شفط المياه من العلبة:

- «والله وبقينا بنقول آلو يا أمريكا وآلو يا مكسيك بعد ما كنا مش قادرين نقول آلو يا رغيف العيش الحاف! الله يرحمك يا جمال يا عبد الناصر! حزمت لنا البطون وفى الآخر انهزمت وانسميت فى بدنك! فينك تشوف الريف المصرى واللى جرى له لما فاضت عليه فلوس الخليج! بقينا أوروبا والعياذ بالله! بنشترى اللبن والفراخ المجمدة والعيش الفينو ونشيل المحمول ونرطن باللاوندي!.. يا محلا يا محلا.. يا ترى تمنه كام التقدم ده يا ابن بهانة الهفتانة؟! أمريكا خلاص كلت العراق وحتقطعه حتت حتت عشان كل ديب فايت ينتش له حتة!.. زى ما إسرائيل كلت فلسطين ربنا حيسترها معاها إن شاء الله!.. لكن أنا باوجع فى دماغى ليه وانتو ناس شايلين هم بطنكم وبس! جاتكم نيله! بكره اللى كلتوه بط بط تنزلوه وز وز».

ويمسح شاربه ويمشى مشيعا بالسلام ورحمة الله وبركاته ليلتك فل يا ابا الحاج..

على أن شيئا طرأ على الحياة فى البلدة جعل الحاج عزوز ينسى الهزار والفصول الضاحكة، أصبح يغالى فى احترام الكبير والصغير لكى يشاورهم فى أمر ذلك الخطر الداهم الذى بات يهدد أمن البلدة بقوة، حيث كانت أنباء قد توافرت عن ظهور سلعوة متوحشة شرسة في الحقول المتاخمة للبراري، سرعان ما تجرأت على المساكن المتطرفة تفترس الدجاج والأغنام تبقر البطون تخمش الوجوه تقلع العيون بأظافر حداد. فى البداية كان الخبر أشبه بطرفة يتندر بها الرجال فى قعدات المساء والسهرة، إلا أن هذه القعدات نفسها باتت ترتعد كل ليلة من هول أنباء عدد ضحايا السلعوة فى كل البلدان القريبة من بلدتنا، عشرات بل مئات من أطفال وبنات ونساء ورجال وماشية تهاجمهم السلعوة فى أعقار دورهم على حين غرة، تثير فزعهم فلا يفلحون فى مقاومتها بله أن يقتلوها، أصبح موضوع السلعوة مادة يومية ثابتة فى الصحافة والتليفزيون والإذاعة والفضائيات العربية والأجنبية، باتت قلقا مقيما يقتات على أعصاب الناس فى الأماسى الحالكة المتوترة. أنباء اقتراب السلعوة من حدود بلدتنا يترجمها العائدون من الحقول البعيدة فى حال يرثى لها من الخضة والاضطراب والجراح، حيث تمتلئ البلدة فى الصباح بحكايات لا حصر لها عمن هاجمتهم السلعوة من أهل بلدتنا، كلها محكية بنبرة واحدة حماسية وغريبة يشى إيقاعها المتعجرف من فرط الرعب بأن للسلعوة أن تهاجم جميع البشر فى جميع البلاد أما بلدتنا وأهل بلدتنا فلا.. أو هكذا أرادوا الإيحاء للحاج عزوز وهم ينقلونها إليه باعتباره

العمدة المسئول عن حماية البلدة من كل خطر يتهددها، إلا أن بريقا غامضا يحاول الاحتجاب خلف نظراتهم التى يجتهدون فى أن تأخذ طابع الجدية الصارمة، يشى هذا البريق بأنهم على ثقة من أن الحاج عزوز سوف يسلقهم بلسان السخرية الشبيه بالصنفرة، بل ها هى ذى آذانهم قد تدلت فى خجل كأبناء السبيل البائسين إذ ينصتون لتقريع ولى نعمتهم، وها هو ذا يستشيط غضبا من هذه اللهجة الغشيمة التى تريد تحميله المسئولية وحده عما حدث، يمسح شاربه ويتفتف بعد إشعال سيجارة مارلبورو، يفشخ حنكه عن بسمة خشنة شاحبة مسددا بصره إلى آخر من تحدث فوجده واحدا من أنصاف القوالب الذين أصبح لهم كيان فى البلد:

-« معك حق يا عبد الرشيد!.. أهل بلدتنا ياما تلقوا الصفع والركل من عسكر الحكومة وموظفيها وجباة ضرائبها بشكل أفظع مما تلقوه من عسكر الاحتلال الأجنبي! سبحان العاطي! اليوم طول لسانهم على العمدة يحملونه مسئولية السلعوة!.. إياك تظن أن العمدة سيحمل البندقية ويطارد السلعوة بنفسه! الشملول فيكم يرينى شطارته! ».

أصبح من المألوف أن تجد على المصاطب وفى الدكاكين من يتحلق حوله القوم إذ هو يحكى لهم كيف طاردته السلعوة وكيف نجاه الله منها بمعجزة وأعجوبة، يقع الجميع فى عرضه طالبين منه - بشغف عظيم - أن يصف لهم شكل السلعوة وكيف نجاه الله منها بالتفصيل، عندئذ يصيبه الوجل ثم التردد ثم الحيرة المضطربة، ثم يفتعل لهجة الكبار حين يعمدون إلى تبسيط الأمور الخطرة:

-« إنها.. مجرد كلب.. إلا أن قدميه الأماميتين أقصر قليلا من الخلفيتين فتظهر كأنها كلب محنى مكسور الظهر.. كما أنها طويلة

الأذنين كبيرة الرأس.. نعم.. لا بد أن تكون كبيرة الرأس.. وهى لا تعرف التفاهم!.. تهجم عليك تنشب أظافرها فى ثيابك وأنيابها فى لحم وجهك واقفة على قدميها فتوقعك على ظهرك فتقفز فوقك تهبرك من الكتف من الفخذ من أى مكان فيه لحم طري.. وفى لمح البصر لا تجدها!».

كعادة الأخطار المروعة حين نتراخى فى مواجهتها قبل تفاقمها ونكتفى بترقب أنبائها باتت السلعوة ترتع فى ربوع بلدتنا بكل جبروت وحرية وانطلاق، تسكن داخل الصدور والأفئدة، يظل الناس ساهرين طول الليل فوق الأسطح وعلى المصاطب وأمام الدكاكين وعلى شطآن الترع والمصارف مدججين بأسلحة لا جدوى من حملها طالما أن القلوب المرتعدة لا تضخ فى السواعد والأيدى سوى الرعشة والتخاذل والصمم وانحسار البصر والخور، فى طلعة النهار يتضح أن زريبة قد بقرت بطون مواشيها، أن عشة دجاج بأكملها قد اختفت، أن طفلا رضيعا اختطف من حضن أمه الراقدة به فى حوش الدار، أن كلبة يزيد البرلسى ابن بهانة الهفتانة هى الكلبة الوحيدة المحترمة الشجاعة حيث لم يسمع الجميع صوتا من كلاب البلدة إلا صوتها وحده قد ركبه ألف عفريت، وأن الجهة الشرقية التى فرضت عليها حمايتها - وفيها بيت العمدة وعائلته - لم تحدث فيها حوادث. دخلت بلدتنا لأول مرة فى تاريخها صفحات الحوادث فى الصحف وظهر ناس من أهلها على شاشة التليفزيون يستعرضون جراحهم وعاهاتهم التى نعرف جميعا أنها سابقة على ظهور السلعوة، بل أصبحنا نحن يا أولاد البلد ومسئولى الأمن فيها نعرف أخبار خطف وقتل ونهش لم نكن عرفناها بالأمس زمن حدوثها نظرا لكثرة ما يمكن أن يلهينا عن الكثير مما يحدث فى جهات أخرى من البلدة.

فـى تلك الليلة الليلاء كان الذعر يرافق الإنسان إلى المطبخ ودورة المياه والسرير، يصرخ الواحد لدى اقتراب أى ظل أو قيام هبة ريح، كل كلاب البلدة الخسيسة الموالية لأصحابها فحسب كانت فى تلك الليلة تأخذ فى ظلال الدور والأشجار شكل السلعوة إذ يتضاعف حجم ظلها فينكرها أصحابها.. إلا كلبة يزيد ابن بهانة كانت على طول الليل والنهار واضحة مميزة بصوتها الخشن القريب من الزئير وبحجمها الفتى القريب من حجم المهرة وبلونها الأصفر المموه بالبنى الضارب إلى البنفسجي، تنطرح فوق كوم السباخ تحت الجميزة أمام دار الحاج عزوز، نائمة على جنبها حيث تدب الحركة والحياة فيما بين ساقيها بستة جراء لطاف ظراف خفيفى الظل بصحة جيدة، تنتفض نشاطا وبهجة بلقاء الحياة، ألوانها تتقاسم الأبيض والأسود بطريقة عجيبة حيث يستقل كل لون بكلب أو أكثر ثم يشتركان معا فى كلب أو أكثر، يتسابقون إلى أثدائها المتدلية، تستسلم لهم فى لذة فائقة تتضح على ملامحها النشوانة وهى مغمضة العينين سابحة فى الملكوت وستة أفواه تمص فى أثدائها بنزق وعنف يهزهزها فتمتص الهزهزة بنفس اللذة التى امتصت بها هزهزة الكلب الأرقط الصايع وهو يعشرها على الملأ فى وضح النهار ذات يوم مشهود..مع ذلك ما تكاد أذنها تلتقط نأمة أو أقل حركة حتى تنتفض متحفزة تزأر مكشرة عن أنيابها دون أن تزعج الرضع، أما إن تأكد لها أن ثمة حركة لغريب مجهول وطئت قدمه أرض البلدة أو أن طيف عزرائيل يحوم حول ديارها فإنها حينئذ تهب فى الحال واقفة مطرطقة أذنيها لبرهة، محملقة فى الأفق البعيد، قد تعوى برعب وفجيعة من رهبة طيف عزرائيل، قد تهوهو لفترة كأنها تذيع بيانا شديد اللهجة تلقى به الرعب

فيمن تشم رائحته، قد تكتفي بذلك عائدة إلى ضجعتها طارحة جسدها كوليمة لجرائها، وقد تغادرهم فجأة في هرولة سرعان ما تتطور إلى جرى في جرى حيث تعبر الجسر العتيق وتقطع شاطئ المصرف من أول البنايات إلى آخرها رائحة جائية تتشمم الأرض حيثما وقفت ثم تروح توزع قطرات من بولها على ناصية كل مدخل من مداخل البلدة لتكون رائحة بولها بمثابة لافتات تعلن أبناء جنسها من جميع الفصائل أن هذه المساحة الشاسعة هي مملكتها وحدها فمن يقربها سيلقى سوء المصير، ولربما تأخرت في الخلاء تنهش بصوتها في عباءة الليل السوداء حتى تهلهلها وتظل به حتى لا يبقى على جسده سوى ثيابه الداخلية البيضاء فتقفل عائدة في تطامن وهي موقنة من أن صاحبها يزيد ابن بهانة قد بعث بمن أتى له بالجراء لتبييتهم في عشة لصق محله من الخلف المطل على المزارع التعيسة، تتجه تلقائيا إلى العشة يحدوها شوق عارم إلى حضن عيالها ومص أفواههم لأثدائها..

في تلك الليلة الليلاء حضر الرجال من وجوه الأعيان بعد صلاة العشاء. امتلأت غرفة الصالون عن آخرها فجيء بكراسي السفرة على بابي الصالون المتصلين بالشرفة الدائرية، جيء بالشاي الأخضر، ثم أباريق القهوة العربية في سيل لا ينقطع، صاروا يتناقشون في حمية وحماسة وشعور بالخطورة، يقدمون الاقتراحات ثم يعدلونها ثم يهملونها بعد استهيافها، والليل يوغل في التقدم، وصوت كلبة يزيد قد اختفى وهو أمر لاحظه العمدة ونبهني إليه في كثير من القلق..

على أن شيئا ما، كان قد حدث في غفلة منا، لم نكن نعرف أن نسوان الدار أجهزوا في ذلك اليوم على ما تبقى في برنية السمن من إدام،

فلم يبق فيها سوى لحوسات متجلطة وملتصقة بجدران البرنية، فوضعوها فـى الـشرفة الخلفـية تحـت لهـب الـشمس تتلقـى وهـج الظهيرة فيسخن الفخـار فيـسيح مـا علـق به من سمن متجلط ليمكن بعد ذلك سكبه فى إناء منبـسط، لكـنهم نـسوها تمامـا فبقيت فى مكانها على بلاط الشرفة، حل المساء فأضيئت اللمبة الكهـربائية البطيخة المثبتة فى سقف كل شرفة. كلـبة يـزيد تعتـبر الـدار دارها، ليست محتاجة إلى تلصص أو توجس بل تـدخل وتفعـل مـا تـشاء فى ثقة تامة قد لا يتمتع بها الحاج عزوز نفسه، صـعدت إلى الشرفة منجذبة برائحة السمن الفواحة التى تحمل فى باطنها رائحة لحم الجواميس والأبقار والروث الحميم، بحكم العشرة الطويلة مع أهـل الـدار أيقنت الكلبة أن هذه البرنية ما دامت قد أهملت هكذا إلى هذا الـوقت بغطـاء من قماشة طيرها الهواء إلى بعيد فإنها إذن لمباحة لها، فلم تـتردد. البرنية إناء من الفخار يشبه الكرة الأرضية ذى حلق ضيق يسهل سـده بغطاء محكم كما يسهل الغرف منه بالمغرفة دونما هدر يذكر، بطنه دائـرية واسعة. اتسع حلق البرنـية لبوز الكلبة وكان الإدام شهيا وبخاصة لمرضـع مـثلها يطلـب جـسدها هـذا المـدد على وجه التحديد، جعلت تلعق الجـدار الداخلى للحلق حتى نظفته تماما، جذبها ما تحت الحلق مما عاد وتجمـد قلـيلا فـصار عز الطلب للجائع، صارت من فرط الابـتهاج بالوليمة تكـاد تتراقـص وهـى تلف تلقائيا لتتمكن من التقاط ما علق بجدار البرنية الدائـرى المنـبعج لبطن البرنية التى ارتجت على الأرض مالت للوقوع على جنـبها فانـزلقت رأس الكلـبة بالكامـل إلى داخل البرنية فصارت من فرط الـسرور تكـاد تغنـى وهـى تلحـس وفضاء البرنية يرجع أصداء حمحمتها وأصـوات غبطـتها، هكـذا وصـفتها الطفلة رضوى بنت الشغالة التى تخدم

فـى دار العمـدة ولكـنها لم تستطع الربط بين ما رأته وما جرى إلا بعد أن جـرى مـا جـرى. أجهـزت الكلـبة على كل ما فى قاع البرنية وجدرانـها، غـسلتها بلعابهـا وتلمظت، ما لم تره الطفلة رضوى أن الكلبة حين أرادت إخـراج رأسها من عنق البرنية كان ذلك من أول المستحيلات رفعت الكلبة رأسـها بالـبرنية الثقيلة المنبعجة البطن، راحت تلف حول نفسها تتخبط فـى الظـلام بحـثا عن طريق، سمعت الرجال يتحدثون فى الصالون ركضت نحو مصدر الصوت فى الممر الدائري..

تجمـد الـرجال القـريبون من الشرفة لوهلة خاطفة ثم راحت الرعدة تـؤرجحهم فـيطلقون عـواء كعـواء الكـلاب عـند رؤيتها لطيف عزرائيل، ظهرت الكلبة أمامهم، رأسها لابس فى برنيـة السمن التى بدت لحظتذاك رأس حـيوان أسطورى شرس غبى مضطرب متعفرت ينطح من يلتقيه. هب الجميع صارخين من فزع كالثكالى:

- «السلعوة! السلعوة!».

اخـتلط الـصراخ بالعـويل، تخـبط الرجال فى بعضهم، فى الكراسي، فـى الترابيـزات، فـى الأبـواب وفى الحوائط، منهم من وقع مغشيا عليه، ومـن قفـز من الشباك إلى الخلاء، كان الحاج عزوز العمدة أشد الناس فزعا وصراخا:

- «السلعوه قاصدة بيت العمدة! اضرب يا غفير فى المليان! اضرب يا حيوان مستنى إيه؟! السلعوة حتاكلنا وزمانها كلت كلبة يزيد!».

وكلـبة يـزيد شـعرت بمـزيد مـن الاضـطراب والذعـر فهاجت هياجا شـنيعا، ضاقت أخلاقها من هذه المؤامرة الكونية التى وقعت فى حبائلها، صـارت تتقافـز بعنف وعدوانية وشراسة كيفما اتفق؛ تريد النفاذ بجلدها

مـن هـذه الـثورة المـروعة، لكـنها مـا كـادت تـصل إلى كـوم الـسباخ تحت الجميزة حتى اصطادتها أول رصاصة من بندقية شيخ الغفر نزولا على أمر العمـدة، ثـم طالـتها الرصاصـة الثانية فاخترقت مؤخرتها واخترقت قعر البرنية الفخار، ارتمت الكلبة تنزف النزع الأخير فى حياتها..

من صلاة الفجر خرج المصلون يزأطون يفخرون بما حدث، مع ذلك لم يجـرؤ واحـد مـنهم - حتى شيخ الغفر ببندقيته - على الاقتراب من كوم الـسباخ ظـنا مـنهم أن هـذا الحـيوان الخرافـى الغدار لا بد أن يكون ماكرا كالثعلب يصطنع الموت حتى ينصرف عنه مطاردوه..

فـى الـصباح كـنت أشـرب الشاى مع الحاج عزوز فى محاولة لتربيط الجأش واسترداد الهدوء للأعصاب بعد ليلة سافلة. شاهدنا العيال الصغار يـتجمعون فـوق كـوم الـسباخ فـى صـخب هائـل، بكـل جـرأة يـضربونها بأقدامهم فى بطنها ساخرين:

- « سلعوة!؟ سلامات يا سلعوة! قال سلعوة قال!».

وأحـد العـيال يكـسر بقايـا الـبرنية الفخاريـة ثـم يهتف بألم طفولى مؤثر:

- « دى كلبة يزيد يا عيال! كلبة يزيد ابن بهانة الهفتانة!».

راحت أفرع الشجر وأركان الشرفات تردد أصداء هتاف العيال الذين بـدوا كـأنهم سـعداء باكتـشاف واحـدة مـن أكاذيـب الكبار: كلبة يزيد يا عيال! كلبة يزيد ابن بهانة الهفتانة! ههأ وأوأو يا سلعوة!

لحظتها دخلت علينا الحاجة نور زوج الحاج عزوز:

- « ما تعلمش يا حاج! مش البنت رضوى شافت..».

وحكت الحكاية..

خسوف كامل حل بوجه العمدة أحاله إلى قبضة من خشب متفحم بعد حريق مروع كانت بقايا لهيبه لا تزال متقدة فى عينيه إذ يتطاير منهما الشرر الأحمر المزرق. هب واقفا يصفق كفا على كف:

– «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم سبحانك إنى كنت من الظالمين!».

مشى نحو جدار الشرفة كالماشى فى جنازة، صرخ فى العيال بحدة، لعن آباء الذين خلفوهم، أمرهم بالانصراف وإلا نزل فملص آذانهم وربما قطع رقابهم، فر العيال كسرب من عصافير مذعورة ارتكن العمدة بمرفقيه على حافة الجدار، ظهرت الكلبة منطرحة على ظهرها رافعة سيقانها الأربع، أغرقنى منظر العمدة فى كآبة لزجة من حرارة غيظ كظيم. جعلت أبحث فى رأسى عن كلمات مناسبة لعلها تفلح فى التخفيف عنه وعني، ولكن المنظر داهمنا، اغتال البقية الباقية من أعصابنا، كان الجراء الستة قد ظهروا من خلف الدار يتقافزون فى شقاوة طفولية نزقة مغامرة تتحدى مرور الدواب والسيارات على الطريق. كان واضحا أنهم قد عثروا أخيرا على أمهم فركضوا نحوها فى ابتهاج عظيم يتشممون آثارها على الأرض – ربما للذة إضافية – فى كل خطوة مع أنهم فى الطريق إليها، ها هى ذى راقدة فى استقبالهم بوضع مستباح. اندفع الجراء الستة برشاقة غاية فى الجمال، انكفأ كل منهم على ثدى فالتقمه وانخرط فى مص ومضغ وبلع. دقائق طويلة مرت والجراء يرضعون من أثداء أمهم القتيلة، كان من الواضح بما لا يدع أى منفذ للشك أن هنالك بالفعل رحيقا حيويا يرضعه الكلاب وإلا ما استمروا كل هذه الدقائق فى اندماج الجائع حين يأكل بشهية وشراهة فيما بطونهم تعلو وتهبط فى استقبال ما يرد إليها من

طعـام. هـل هـو وهـم ما يسيطر على الجراء الآن؟ أم أن الإدام الذى دفعت حـياتها ثمـنا لـه بقـى حيا فى الجسد الميت حتى يصل إلى مستحقيه؟ علم ذلـك عـند ربـي، لكـن الألم كان يقبض على قلبي، وكانت نهنهات الحاج عـزوز العمـدة قـد ارتـفعت وتدفقت بحرارة وحرقة بجعير مقهور كجعير اليتـامى البائسين.

الفهرس



طبعت بمطابع الجزيرة إنترناشيونال
٥ شارع جمال الشاهد من شارع السودان – المهندسين
تليفون . ٣٣٤٧٤٢٥٩ (٢٠٢) فاكس: ٣٣٤٥٢٠٥٦ (٢٠٢)
www.algazeraweb.com
elgezirapress@hotmail.com

تجليات أدبية

كانت تمشى ناظرة فى الأرض بخطو بطىء ولامبالاة أرغمت السيارات على انتظارها حتى تعبر إلى رصيف الجامعة بكل ارتياح. عندئذ كنت قد تركت سيارتى فى عهدة المنادى واقتربت من باب الجامعة فى اللحظة التى كانت أم صلاح قد زحفت فيها إلى الباب ثم وقفت حائرة تائهة تتفحص فى الواقفين الذين راحوا يتزحزون بعيدا فى اشمئزاز وتأفف من منظرها وكانت هى غارقة فى الحرج لا تدرى ماذا تفعل أكثر من التوسل فى النداء: «لو سمحت والنبى يا ابنى! با قولك ايه يا دى الجدع!»، أدركتها: «عايزه إيه يا حاجة؟!» قالت: «والنبى يا سعادة البيه ماتعرفش تلميذ هنا فى الطب اسمه صلاح البدوى؟»، ابتسمت لها وقلت: «تقصدين الدكتور صلاح بدوى؟ طبعا زميلي!» عاجلتنى: «طب والنبى تقول له فيه واحدة مستنياك بره!» ،وكانت فرحة جدا بلقب الدكتور يزين اسم ابنها، قلت لها: «حضرتك أمه؟» فارتبكت جدا، تلجلجت: «إ...أ..لأ..لأ.. بس قول له وهو حيعرف!». صحت فيها بغيظ: «أقول له مين يعنى؟!» راح[illegible] «إن شا الله ما اشتهيك! قول واحدة قريبتك وهو[illegible] بص! قول له جارتكم بتاعة الحلاوة!» .ورغم أن[illegible] واثقا من أنها أمه فإننى حين التقيته همست فى[illegible] واحدة ست شبه بلدنا بتسأل عليك!».





ميريت